جامعة الأزهر ـــ فرع البنات بالقاهرة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
قسم التفسير وعلوم القرآن

حديث القرآن الكريم عن اليوم الآخر

إعـــداد
الدكتورة / عزة أحمد عبد الرحمن
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات ـــ القاهرة

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله مـــن شـــرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحـــد الـــديان ، خـــالق الأكوان ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صل

وسلم وبارك على سيدنا محمد صلاة المحبين له ، العاملين بسنته ، وأسألك أن تجازيه عنا خير ما تجازى نبياً عن أمته .

أمــا بعــد

فإن الله خلق الإنسان وحمله أمانة التكليف ، فجعله بهذه الأمانة سيداً لهـــذا الكون ، فإذا قصر بقى الكون مسخراً له كما خلقه الله حتى يأتى اليـــوم الـــذى يسءل فيه الإنسان عن تقصيره ويعاقب عليه ، ألا وهو اليوم الآخر .

ولم يخلق اللهِ الإنسان عبثاً ، بل خلقه للعبادة .قال تعـــالى : ﴿ وَمَا خَلَقْت الجن وَالإنس إلا لِيَعْبُدون ﴾ [١] .

وخلَقه ليستَمتع بهذا الكون الرائع ، البديع،وشرع له منهجاً نظِم علاقته بهذا الكون ، وخلقه أيضاً للابتلاء والاختبار قال تِعالى: ﴿ الذى خَلَقَ المَوتَ والحَياة لِيَبلوكم أيكُم أحسن عملاً وَهُوَ العَزيز الغفور ﴾ [٢] فالحياة وقت للامتحـــان ، وينتهى الوقت بالموت ، وتظهر النتيجة فى اليوم الآخر ، فيظهر المحسن من المســـىء والمحق من المبطل ويثاب المحسن ويعاقب المسىء .

لذلك كانت أهمية الكتابـــة فـــى هـــذا الموضوع ، فهذا الموضـــوع مـــن الموضوعات المهمة وليس أدل على ذلك من أن الله تبارك وتعالى يقرن بين الإيمان به سبحانه وبين الإيمان باليوم الآخر فى آيات كثيرة من القـــرآن الكـــريم ، ثم هـــذا

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦) .

(٢) سورة الملك آية (٢) .

الموضوع يجيب عن التساؤلات التى تدور بخاطر الإنسان ، فالإنسان يريد أن يعرف نهايته فيجيبه هذا الموضوع بأن نهايته الموت ، ثم يريد أن يعرف خلقه الجديد فيجيبه هذا الموضوع بأنه : البعث ، ثم يريد أن يعرف الأحداث التى تحدث له بعد البعث فيجيبه بأنها : كذا وكذا كما هو موضح فى هذا البحث .

خطة البحث :

يتكون هذا البحث من مقدمة وتمهيد وتسعة مباحث .

التمهيد ويشتمل على :

١ ــ معنى اليوم الآخر .

٢ ــ وروده فى القرآن .

٣ ــ أهمية الإيمان باليوم الآخر .

المبحث الأول : أمارات الساعة .

المبحث الثانى : الموت .

المبحث الثالث : البعث .

المبحث الرابع : الحشر .

المبحث الخامس : فناء الكون .

المبحث السادس : الشفاعة العظمى .

المبحث السابع : الحساب والميزان .

المبحث الثامن : الصراط .

المبحث التاسع : إنصراف الناس إلى منازلهم .

الخـــاتمـــة : وتشتمل على أهم نتائج البحث .

منهج البحث :

أما عن منهجى فى هذا البحث فتبعت الخطوات الآتية :

أولاً : جمعت الآيات الخاصة بكل مبحث .

ثانياً : قمت بتفسيرها تفسيراً موضوعياً من كتب التفسير المعتمدة .

ثالثاً : جمعت الأحاديث التى تتعلق بكل مبحث وكان كل اعتمادى على الأحاديث الصحيحة .

رابعاً : الحاشية :

(أ) عزوت الآيات المستشهد بها إلى سورها ، وإذا كانت الآية كاملة كتبت آية رقم كذا ، وإذا كان جزء آية كتبت من الآية رقم كذا .

(ب) خرجت الأحاديث من مصادرها وكانت صيغة التخريج كتاب كذا ، باب كذا ، حديث رقم كذا ، بدون كتابة الجزء والصفحة ما عدا مسند الإمام أحمد ، ومعجم الطبرانى ، والمستدرك للحاكم .

(ج) قمت بشرح الألفاظ الغريبة من كتب اللغة ومن كتب غريب الحديث .

وبعد فهذا ما وفقنى الله إليه من البحث والدراسة وأسأل الله العلى الكبير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعنى به وأن ينفع به خاصة المسلمين وعامتهم إنه على ذلك قدير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

التمهيد

يشتمل على عدة مسائل :

المسألة الأولى : معنى اليوم الآخر

اليوم الآخر : هو يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

قــال الطبري : " وقــوله : ﴿ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ يعنى بالبعث يوم القيامة ، وإنما سمى يوم القيامة اليوم الآخر لأنه آخر يوم ، ولا يوم بعده سواه .

* فإن قــال قائل : وكيف لا يكون بعده يوم ، ولا انقطاع للآخــرة ، ولا فناء ، ولا زوال ؟

قيل إن اليوم عند العرب إنما سمي يومًا بليلته التى قبله فإذا لم يتقدم النهار ليل لم يسمّ يوماً ، فيوم القيامة يوم لا ليل له بعده سوى الليلة التي قامت في صــبيحتها القيامة ، فذلك اليوم هو آخر الأيام ، ولذلك سماه الله جل ثناؤه (اليوم الآخــر) ، ونعته بالعقيم ، ووصفه بأنه يوم عقيم لأنه لا ليل بعده " (٢) .

" والمراد باليوم الآخر الوقت الذي لا ينقطع ، بل هو دائم أبدًا " (٣) .

وقد يراد منه اليوم الذي يبتدئ بالبعث وينتهي باستقرار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

---

(١) سورة البقرة : آية (٨) .

(٢)جامع البيان : ج١ ص١١٧ ،وشاهد ذلك من القرآن "حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم "الحج آية ٢٢ .

(٣) فتح القدير للشوكاني جـ١صـ٧١ .

المسألة الثانية : وروده في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم اليوم الآخر في ستة وعشرين موضعًا ، اثــنين وعشــرين منها قرن فيها بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والسرُ في ذلك هو: أن الإيمــان بالله والإيمان باليوم الآخر هما طرفا الإيمان .

يقول الفخر الرازي :" إن للمكلف مبدأ ووسطًا ونهايــة ، ومعرفــة المبــدأ والمنتهى هو المقصود بالذات، وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأمــا معرفــة مصالح الوسط فلا تتم إلا بالرسالة وهي لا تتم إلا بأمور ثلاثة : الملائكــة الآتــين بالوحي ، ونفس ذلك الوحي ، وهو الكتاب ، والموحي إليه وهو الرسول " (١) .

" وفي الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمان بالرسل والكتب والبعث "(٢).

ولليوم الآخر في القرآن الكريم أسماء عدة منها :

الآخرة ، ويوم القيامة ، ويوم الدين ، ويوم الحساب ، ويوم التناد ، ويــوم الحسرة ، ويوم الفصل ، ويوم التلاق ، ويوم الآزفــة ، والطامــة ، والصــاخة ، والقارعة ، والحاقة ، والغاشية ، والساعة ، والواقعة .

أما الآخرة : ففي قوله تعالى : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

" الآخرة في الأصل : تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول وهي صفة الدار ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ (٤) ، سميت بذلك لأنها متــأخرة عــن الدنيا ، وقيل للدنيا : دنيا ؛ لأنها أدنىَ من الآخرة ، وهما من الصفات الغالبة ، ومع ذلك فقد جريا مجرى الأسماء ، إذ قد غلب ترك ذكر اسم موصــوفهما معهمــا، كأنهما ليسا من الصفات" (٥) .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي : جــ٥صــ٣٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : جــ١صــ٤١٤ .

(٣) سورة البقرة من الآية (٤) .

(٤) سورة القصص من الآية (٨٣) .

(٥) محاسن التأويل للقاسمي جــ١صــ٢٧٢ .

وأما يوم القيامة ففي قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾[1] .

والمقصود بيوم القيامة : " يوم تقوم الساعة "[2] .

وأما يوم الدين ويوم الفصل : ففي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[3] .

" ويوم الدين : اليوم الذي ندان فيه ، أي نجازي بأعمالنا .

" ويوم الفصل : يوم القضاء ، والفرق بين فرق الهدى والضلالة " .

أما يوم التلاق : ففي قوله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾[4] .

" (ويوم التلاق) يوم القيامة ؛ لأن الخلائق تلتقي فيه . وقيل : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض . وقيل : المعبود والعابد " .

وأما يوم الآزفة : ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾[5] .

" الآزفة : القيامة ، سميت بذلك لأزوفها ، أي : لقربها " .

وأما يوم التناد : ففي قوله تعالى:﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾[6] .

وسمي يوم التناد لما حكى الله في سورة الأعراف من قوله : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾[7] ، ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾[8] . ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور .

---

١) سورة البقرة من الآية (٨٣) .

٢) جامع البيان جـ١صـ٤٠١ .

٣) سورة الصافات آية (٢١،٢٠) .

٤) سورة غافر من الآية (١٥) .

٥) سورة غافر من الآية (١٨) .

٦) سورة غافر الآية (٣٢) .

٧) سورة الأعراف من الآية (٤٤) .

٨) سورة الأعراف من الآية (٥٠) .

وأما الطامة : ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾[1] .

"(الطامة) الداهية التي تطم على الدواهي ، أي : تعلو وتغلب ، وفي أمثالهم : جرى الوادي فطمَّ على القرى ، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة "[2] .

أما الصاخة : ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾[3] .

قال البغوي : " (الصاخة) يعني يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها "[4].

أما الواقعة : ففي قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾[5] .

" و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة ، أو منقول ، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التي لابد من وقوعها ".

وأما الحاقة : ففي قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ ﴾[6] .

" (الحاقة) أي : الساعة الحاقة التي تحقق فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال "[7] .

وأما القارعة : ففي قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾[8] .

قال أبو السعود : القرع : هو الضرب بشدة واعتماد ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، وهي القيامة . سميت بها لأنها تفزع القلوب والسماع بفنون الأفزاع

---

١) سورة النازعات الآية (٣٤) .

٢) الكشاف جـ٤صـ٣٩ ، صـ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٦٩٧ .

٣) سورة عبس الآية (٣٣) .

٤) معالم التنزيل جـ٤صـ٤١٨ .

٥) سورة الواقعة الآية (١) .

٦) سورة الحاقة الآية (١، ٢) .

٧) محاسن التأويل جـ٩ صـ٦ ، ٢١٦ .

٨) سورة القارعة الآية (١،٢) .

والأهوال .وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال : السماء بالانشقاق والانفطار ، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار ، والأرض بالزلزال والتبديل ، والجبال بالدك والنسف " [١].

أما يوم الحسرة : ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾[٢].

"وأنذر يا محمد هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم،على ما فرطوا في جنب الله ، وأورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وادخلوهم مساكن أهل الإيمان بالله من النار،وأيقن الفريقان بالخلود الدائم ، والحياة التي لا موت بعدها ، فيالها من حسرة وندامة " [٣].

وأما الغاشية : ففى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ [٤].

" وهي القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها " .

أما الساعة:ففى قوله تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [٥].

" الساعة : القيامة وهى من الأسماء الغالبة وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها " [٦].

* * *

---

١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ٥ صـ٨٩٧ .

٢) سورة مريم من الآية (٣٩) .

٣) جامع البيان جـ٩ صـ٨٧ .

٤) سورة الغاشية الآية (١) .

٥) سورة الأعراف من الآية (١٨٧) .

٦) فتح القدير جـ٥ صـ٥٠٨ ، جـ٢ صـ٣٤٧ .

المسألة الثالثة : أهمية الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تبارك وتعالى وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر يحفز الإنسان على الطاعة ويبعده عن المعاصي لأنه متى آمن الإنسان بأن هناك يومًا يُسأل فيه عن أعماله ويجازي عليها بالثواب أو العقاب فإنه يخاف من هذا اليوم ويعمل له ألف حساب وكثيرًا ما نجد آيات القرآن تذكر أن سبب الوقوع في المعصية هو عدم الإيمان باليوم الآخر فمن ذلك ما ورد في تطفيف الكيل وأن سببه هو عدم الاعتقاد في الآخرة قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [١] والآيات في ذلك كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

---

(١) سورة المطففين من الآية (١ : ٥) .

المبحث الأول
أمارات الساعة

الأمارات جمع أمارة ، والأمارة : هي العلامة .

جاء في لسان العرب ما نصه :" وكل علامة تعد فهي أمارة. وتقول : هي أمارة ما بيني وبينك أي علامة ، الأمارُ والأمارَة : العلامة " [١] .

والساعة فى اللغة : هي جزء من أجزاء الليل والنهار ، جمعها : ساعات وساعت ، والليل والنهار معًا أربع وعشرون ساعة .

والساعة في الاصطلاح الشرعي :هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، [٢] فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة .

وقد عبر العلماء عن أمارات الساعة ، بعلامات الساعة ، أو أشراط الساعة غير أني آثرت التعبير بأمارات الساعة لما جاء في حديث جبريل الطويل حيث قال للنبي ﷺ: [فأخبرني عن أماراتها] [٣] .

وقد قسم العلماء أمارات الساعة إلى قسمين :

أمارات صغرى وأمارات كبرى وسأعرض تلك العلامات موجزة معتمدة في ذلك على ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم .

أولاً : العلامات الصغرى :

العلامات الصغرى التي وردت في صحيحي البخاري ومسلم سبع وعشرون علامة.

---

١) لسان العرب لابن منظور جـ١ صـ١٢٩ .

٢) أشراط الساعة "يوسف الوابلى ،ص٧٣ .

٣) أخرجه مسلم فى صحيحه :كتاب الإيمان ، باب الإيمان والإسلام والإحسان ح (٨).

روي البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [يتقارب الزمان [١] ، وينقص العمل ، ويلقي الشح ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج .

قالوا : يا رسول الله ، أيما هو ؟ قال : القتل القتل] [٢] .

وعن حذيفة بن اليمان يقول : [كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت: يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن [٣] . قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر [٤] ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم [٥] ، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت يا رسول الله ، صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت:

---

١) يتقارب الزمان : قال ابن بطال : ومعناه والله أعلم تقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر لغلبة الفسق وظهور أهله . وقال الطحاوي : قد يكون معناه في ترك طلب العلم خاصة والرضا بالجهل . فتح الباري جـ١٣ صـ١٨ . وأرى أن تقارب الزمان معناه : مرور الوقت بسرعة وعدم البركة فيه وقد بدأت هذه العلامة تتحقق بالفعل والناس في هذا الزمان يشعرون بذلك .

٢) أخرجه البخاري في صحيحه:كتاب الفتن، باب ظهور الفتن حديث ٧٠٦١ .

٣) دخن : هو الحقد ، وقيل : الدغل ، وقيل : فساد في القلب ، فتح الباري جـ١٣صـ٣٩ .

٤) تعرف منهم وتنكر : يعني من أعمالهم ، المصدر السابق .

٥) دعاة : جمع داع أي إلى غير الحق .

على أبواب جهنم : أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يؤول إليه حالهم ، فتح الباري جـ١٣صـ٤٠ .

هذه العلامة تحققت ، وأعتقد أن الدعاة على أبواب جهنم هم : الإعلاميون الذين يدعون الناس إلى الضلال والفساد الأخلاقي عن طريق ما ينشرونه في الإذاعة ، والتلفاز ، والصحافة ، وغير ذلك .

فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فــإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفِرقَ كلها ، ولو أن تعض بأصــل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك] [١] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان [٢] يسوق الناس بعصاه] [٣] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يبعــث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل، وحــتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه عليــه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أَرَبَ لِي بِهِ ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحــتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربهــا ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [٤] ولتقومن الساعة وقــد نــشر الرجلانِ ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقــد انــصرف

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الفتن ، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة حديث : ٧٠٨٤ .

(٢) قحطان : بلدة باليمن وقوله يسوق الناس بعصاه : كناية عن غلبته عليهم وانقيادهم له ، وهذه العلامة تحدث بعد تخريب البيت لأن الحبشة إذا خرّبت البيت خرج عليهم القحطــان فأهلكهم. فتح الباري جـ٣ صـ٨٣ ، ٨٤ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الفتن ، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان حــديث ٧١١٧ .

(٤) سورة الأنعام من الآية (١٥٨) .

الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها] [١] .

وروي مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:[حــدثني أبي عمر بن الخطاب ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يومٍ ، إذ طلع علينــا رجل شديد بياض الثياب . شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر. ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ . فأسند ركبتيه إلى ركبتيه. ووضع كفيه علــى فخذيه. وقال: يا محمد ! أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ " الإســلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ . وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت ، إن استطعت إليه سبيلاً " قال : صدقت . قــال : فعجبنا له . يسأله ويصدقه . قــال : فأخبرني عن الإيمان قال " أن تؤمن بــالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره " قــال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال " أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك " قال : فأخبرني عن الساعة . قال " ما المسؤل عنها بــأعلم مــن السائل " قال : فأخبرني عن أمارتها. قال:" أن تلد الأمة ربتها [٢] . وأن ترى الحفاة العراة ، العالة ، رعاء الشاء ، يتطاولون في البنيان " قال ثم انطلق . فلبثت مليًا . ثم قال لي :" يا عمر ! أتدري من السائل ؟ " قلت : الله ورسوله أعلم . قال :" فإنــه جبريل . أتاكم يعلمكم دينكم "] [٣] .

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الفتن ، باب (٢٥) حديث ٧١٢١

٢) يعني السراري ومعنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها . قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن . صحيح مسلم بشرح النووي جـ١ صـ١٥٧ .

٣) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان ، باب الإيمان والإسلام والإحسان حديث (٨).

وعن حفصة رضى الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول : [ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه . حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض ، يخسف بأوسطهم . وينادي أولهم آخرهم. ثم يخسف بهم. فلا يبقى إلا الشريد الذي يخبر عنهم] (١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ :[يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب . فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا] (٢) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [منعت العراق درهمها وقفيزها(٣) ، ومنعت الشام مدها (٤) ودينارها ، ومنعت مصر إردبها(٥) ودينارها . وعدتم من حيث بدأتم . وعدتم من حيث بدأتم . وعدتم من حيث بدأتم شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه] (٦). وعن المستورد القرشي رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [تقوم الساعة والروم أكثر الناس . فقال له عمر : أبصر ما تقول . قال : أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : لئن قلت ذلك ، إن فيهم لخصالاً أربعًا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة . وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة . وأوشكهم كرةً بعد فرة . وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف . وخامسة حسنة جميلةٌ : وأمنعهم من ظلم الملوك] (٧) .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت حديث (٢٨٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب : لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب حديث (٢٨٩٤) .

(٣) القفيز : مكيال معروف لأهل العراق .

(٤) المد : مكيال معروف لأهل الشام .

(٥) الإردب : مكيال معروف لأهل مصر . شرح النووى على صحيح مسلم : ج٩ ص ١٧.

(٦) أخرجه مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة : باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب حديث (٢٨٩٦) .

(٧) أخرجه مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب تقوم الساعة والروم أكثر الأرض حديث (٢٨٩٨) .

وعن عائشة : قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت : يا رسول الله ! إن كنت لأظن حين أنزل الله : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١) أن ذلك تامًا . قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله. ثم يبعث الله ريحًا طيبة . فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . فيبقى من لا خير فيه. فيرجعون إلى دين آبائهم] (٢) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ : [يخرب الكعبة ذو السويقتين (٣) من الحبشة] (٤) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي. فتعال فاقتله. إلا الغرقد. فإنه من شجر اليهود] (٥) . وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ . وحدثنا قتيبة بن سعيد (واللفظ له) . حدثنا يعقوب عن أبي حازم ، أنه سمع سهلاً يقول : [سمعت النبي ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى ، وهو يقول " بعثت أنا والساعة هكذا] (٦) .

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة حديث (٢٩٠٧) .

(٣) ذو السويقتين : هما تصغير ساق الإنسان. قال القاضي: صغرهما لرقتهما . وهي صفة سوق السودان غالبًا . شرح النووى على صحيح مسلم : ج٩ ص٣٠ .

(٤) أخرجه مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . . ، حديث (٢٩٠٩) .

(٥) أخرجه مسلم : كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه ، حديث (٢٩٢٢) .

(٦) أخرجه مسلم ، باب قرب الساعة حديث (٢٩٥٠) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز،تضيء أعناق الإبل ببُصرَى[١]] [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات[٣] مميلات مائلات[٤] رؤسهن كأسنمة البُخت المائلة [٥] لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا] [٦] .

من ذلك يتبين أن العلامات الصغرى التي ذكرت في أحاديث البخاري ومسلم سبعٌ وعشرون علامة وبيانها على النحو التالي :

(١) اقتتال فئتان عظيمتان . (٢) بعث دجالين كذابين .

(٣) قبض العلم . (٤) كثرة الزلازل .

(٥) تقارب الزمان . (٦) ظهور الفتن .

(٧) كثرة القتل . (٨) كثرة المال .

---

(١) بُصري : مدينة معروفة بالشام. وهي مدينة حوران : بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل . شرح النووى على صحيح مسلم : ج٩ ص٢٥ .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز حديث (٢٩٠٢) .

(٣) * كاسيات عاريات * قيل معناه كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها ، وقيل معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارًا لحالها ونحوه وقيل معناه تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها .

(٤) * مميلات مائلات * أما مائلات فقيل معناه عن طاعة الله وما يلزمهن يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن وقيل مائلات يمشطن المشطة المائلة وهي مشطة البغايا مميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة .

(٥) * رؤسهن كأسنمة البخت المائلة * معناه : يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها . صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٤ صـ١١٠ .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب اللباس ، باب النساء الكاسيات العاريات حديث (٢١٢٨) .

(٩) التطاول في البنيان . (١٠) تمني الموت .

(١١) نقص العمل . (١٢) كثرة الشح .

(١٣) قومًا يهدون بغير هدى . (١٤) دعاة على أبواب جهنم.

(١٥) خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه .

(١٦) ولادة الأمة ربتها .

(١٧) الخسف بالجيش الذي يريد البيت الحرام .

(١٨) انحسار الفرات عن جبل من ذهب .

(١٩) سقوط الخلافة وانقسام المسلمين دول .

(٢٠) كثرة الروم .

(٢١) عودة الناس إلى عبادة الأصنام.

(٢٢) تخريب الكعبة .

(٢٣) ظهور المهدي .

(٢٤) قتال المسلمين اليهود وكلام الحجر والشجر .

(٢٥) بعثة النبيﷺ.

(٢٦) خروج نار من الحجاز تضيء الشام .

(٢٧) ظهور التبرج.

ثانيًا : العلامات الكبرى :

روي مسلم بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضى الله عنه قال : [اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر. فقال : " ما تذاكرون " قالوا : نذكر الساعة. قال : " إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات " فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج

وماجوج . وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم] [1] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد . سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن أول الآيات خروجًا ، طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا] [2].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : [يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين (لا أدري : أربعين يومًا ، أو أربعين شهرًا ، أو أربعين عامًا) .فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود . فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين . ليس بين اثنين عداوة . ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام . فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته . حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه ، حتى تقبضه . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ . قال : فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع. لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا .فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان. وهم في ذلك دار رزقهم، وحسن عيشهم] [3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة حديث (٢٩٠١) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض .. .. الخ حديث (٢٩٤١) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض .. .. الخ حديث (٢٩٤٠) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [لا تقوم الساعة حتى تقاتلكم أمةٌ ينتعلون الشعر . وجوههم مثل المجان المطرقة] [1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر . ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغار الأعين ، ذلف الآنف] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [لا تقوم الساعة حتى يترل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة. من خيار أهل الأرض يومئذٍ . فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوْا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله ! لا نخلي بينكم وبين إخواننا . فيقاتلونهم. فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا. ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله . ويفتتح الثلث . لا يُفتنون أبدًا . فيفتتحون قسطنطينية . فبينما هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان :إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل . فإذا جاؤا الشام خرج . فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فيترل عيسى بن مريمﷺ. فأَمَّهُمْ . فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء . فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده . فيريهم دمه في حربته] [2] .

يتضحُ من هذه الأحاديث أن العلامات الكبرى عشرة هي : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، وتظهر هاتان العلامتان في نفس اليوم ثم خروج الدجال ويمكث في الأرض أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة ثم نزول عيسى بن مريم

---

(١)أخرجهما مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة حديث (٢٩١٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في فتح قسطنطينية ، وخروج الدجال ، ونزول عيسى بن مريم حديث (٢٨٩٧) .

عليه السلام بدمشق وقتله الدجال بيده ثم خروج يأجوج ومأجوج وقد ذكرت صفاتهم في الحديث وأنهم ينتعلون الشعر ، أنوفهم قصيرة، وجوههم عريضة ، أعينهم صغيرة ، ثم الدخان ،ثم خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ثم خروج نار تطرد الناس إلى محشرهم وبعض هذه العلامات ذكر في القرآن حيث ذكر القرآن الكريم الدابة ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى عليه السلام ، والدخان .

أولاً : الدابة :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[(١)] .

" اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة فقيل : معنى (وقع القول عليهم) وجب الغضب عليهم قاله قتادة . وقال مجاهد : أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم ، وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال القرطبي : وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافًا كثيرًا : فأول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح وهو أصحها ــ والله أعلم ــ لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : [لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية ــ يعني مكة ــ ثم تكمن زمانًا طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك

(١) سورة النمل الآية (٨٢) .

فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية] يعني مكة قال رسول الله ﷺ [ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس منها شتى ومعاً وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدريّ وولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطلحون في الأمصار يُعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر اقض حقي] [(١)] وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله :" وهي ترغو" والرغاء إنما هو للإبل ، وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح له حجر فدخل في جوفه ثم انطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل " [(٢)] .

أما نزول عيسى عليه السلام فذكر في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [(٣)] .

" ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي عيسى ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ شرط من أشراطها تعلم به فسمي الشرط الدال على الشيء علمًا لحصول العلم به ، وقرأ ابن عباس : (لَعَلَمٌ) وهو العلامة وقرئ للعلم وقرأ أبي : لذكر (٢) [4]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا

(١) أخرجه الحاكم بلفظ مقارب : ح ٨٤٩٠ وقال الذهبي : هذا حديث صحيح الإسناد وهو أبين حديث فى ذكر دابة الأرض ولم يخرجاه . ج٤ ، ص٥٣١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٣ صـ١٨٨ : ١٩٠ .

(٣) سورة الزخرف الآية (٦١) .

٤) شواذ القراءة :للكرماني : مخطوط لوحة ٢١٨ .

مقسطًا ، فيكسرَ الصليب ، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد] [١] .

﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ من المرية وهو الشك ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ واتبعوا هداي وشرعي ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه صراط مستقيم "[٢].

أما يأجوج ومأجوج فقد ذكرت قصتهم في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [٣] .

السدان هما: جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان. ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أي من ورائهما مجازًا عنهما ، وقيل : أمامهما ﴿ قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا ﴾ قرأ حمزة والكسائي "يفقهون" بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان ، أي : لا يبينون لغيرهم كلامًا ، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف ، أي لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان [٤] ، ومعناهما : لا يفهمون عن غيرهم ، ولا يفهمون غيرهم ؛ لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم (قالوا) أي : هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً، قيل :إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه

(١) أخرجه البخاري : كتاب البيوع ، باب قتل الخنزير حديث (٢٢٢٢) .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٧ صـ١٩٧ .

(٣) سورة الكهف الآيات:(٩٣:٩٨)

(٤)حجة القراءات للإمام أبي زرعة :ص٤٣٢

الله ، وقيل :إنهم قالوا ذلك لترجمانهم فقال لذي القرنين بما قالوا له : ﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان بدليل منع صرفهما ،وبه قال الأكثر .

واختلف في إفسادهم في الأرض فقيل : هو أكل بني آدم ، وقيل : هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد ، وقيل : كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئًا أخضر إلا أكلوه ، ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين ، والخرج المصدر ، وقال قطرب : الخرج : الجزية ، والخراج في الأرض ، وقيل : الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله ، والخراج : ما يجبيه السلطان ، وقيل : هما بمعنى واحد ، ﴿ عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أي : ردمًا حاجزًا بيننا وبينهم ، ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ أي : قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله لي من القدرة والملك﴿ خَيْرٌ ﴾ من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي : برجال منكم يعملون بأيديهم،أو أعينوني بآلات البناء، أو بمجموعهما،﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هذا جواب الأمر ، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أي :أعطوني وناولوني ، وزبر الحديد جمع زبرة ، وهي القطعة ، قال الخليل : الزبرة من الحديد القطعة الضخمة،﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ والصدفان : جانبا الجبل ، ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أي : قال للعمالة : انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أي : جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر نارًا أي : كالنار في حرها ، وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجازا لكونه الآمر بالنفخ ، قيل : كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمي ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك

الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال أهل اللغة : القطر النحاس الذائب ، والإفراغ الصب ، ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا ﴾ أصله استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان وهما التاء والطاء ، خففوا بالحذف ، ومعنى : ﴿ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أن يعلوه ، أي : فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ يقال : نقبت الحائط إذا خرقت فيه خرقًا فخلص إلى ما وراءه ، قال الزجاج : ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه ، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي : قال ذو القرنين مشيرًا إلى السد ، هذا السد رحمة من ربي ، أي : أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاورين للسد ، ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد ، وقيل : الإشارة إلى التمكين من بنائه ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي : أجل ربي أن يخرجوا منه ، وقيل : هو مصدر بمعنى المفعول ، وهو يوم القيامة ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاء ﴾ أي مستويًا بالأرض ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي : وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقًا ثابتًا لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذي القرنين [1].

هذه قصة يأجوج ومأجوج وعند قرب الساعة يفتح السد ويخرجون على الناس قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [2] .

" في الكلام حذف، أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ . ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يقبلون أي لكثرتهم ينسلون من كل ناحية . والحدب ما ارتفع من الأرض ، والجمع

(١) فتح القدير جـ٣، من صـ٣٩٢ : ٣٩٤ ملخصًا .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٩٦) ومن الآية (٩٧) .

الحداب مأخوذ من حدبة الظهر، وقال الزجاج : والنَّسَلان مشية الذئب إذا أسرع يقال : نسل فلان في العدو يَنْسُل بالكسر والضم نَسْلا ونُسلاً ونَسَلانا أي أسرع .

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعني القيامة . وقال الفراء والكسائي وغيرهما : الواو زائدة مقحمة والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق "فاقترب" جواب "إذا" [1] .

أما الدخان فقد ذكر في قوله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [2] .

اختلف المفسرون هل هذه الآية ظهرت أم لا فقال ابن مسعود :" إن قريشًا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع ، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء ، فلا يرون إلا الدخان ، وفي رواية : فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه .

﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي يتغاشهم ويعمهم ، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا كقوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [3] أو يقول بعضهم لبعض ذلك " [4].

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١١ صـ٢٨٣ .

(٢) سورة الدخان الآيتان (١٠ ، ١١) .

(٣) سورة الطور الآيتان (١٣، ١٤) .

(٤) تفسير القرآن العظيم جـ٤ صـ١٣٨ .

يتضح من ذلك أن علامات الساعة الكبرى عشر هي : الـدجال ونـزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة مـن الأرض تكلم الناس والدخان الذي يأتي من السماء ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تطرد الناس إلى محشرهم وقد ذكر القرآن أربع علامات هي : نزول عيسى عليه السـلام والدابـة ويـأجوج ومأجوج والدخان .

* * *

المبحث الثاني : الموت

يشتمل هذا المبحث على أربع مسائل هي :

١ ــ حقيقة الموت .　　　　٢ ــ تمني الموت .

٣ ــ كيفية موت المؤمن وموت الكافر .　　　　٤ ــ موت النبي ﷺ .

المسألة الأولى : حقيقة الموت .

الموت لغة "ضد الحياة ، عرف الإمام محمد بن أبي بكر الرازي الموت " بأنه : ضد الحياة ، (مات) يموت ويمات أيضًا فهو (مَيِّت) و(مَيْت) مشددًا ومخففًا ، وقوم (موتى) و(أموات) و(ميتون) و(ميْتون) مشددًا ومخففًا فيه المذكر والمؤنث .

قال تعالى : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [1] ولم يقل ميِّتة ، و(الميتة) ما لم تلحقه الذكاة ، و(المُوات) بالضم المَوت ، و(المَوات) بالفتح ما لا روح فيـه، والمَـوات بالفتح أيضًا الأرض التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد. و(الموتان) بفتحـتين ضـد الحيوان يقال : اشتر الموتان ولا تشتر الحيوان ، أي اشتر الأرضين والدور ولا تشتر الرقيق والدواب " [2] . والموت شرعًا قال القرطبي : " قال العلماء : الموت لـيس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولـة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار " [3] .

هـذا التعريف يدل على أن الموت ليس فناءاً محض وذلك لأن الروح عندما تفارق الجسد توضع إما في عليين وإما في سجين فروح المؤمن توضع في عليين وروح الكافر تكون في سجين ، أما الجسد فإنه يتحلل وتبقـى أجـزاءه في الأرض إلى أن يأذن الله بالبعث فتنبت الأجساد وترد إليها الأرواح فيعود الإنسان حيًا كما كان بنفس الهيئة التي كان عليها في الدنيا .

* * *

(١) سورة الفرقان من الآية (٤٩) .

(٢) مختار الصحاح للرازي صـ٣٤٣ .

(٣) التذكرة للقرطبي صـ٤ .

المسألة الثانية : تمني الموت .

هل يجوز تمني الموت ؟

نهي النبي ﷺ عن تمني الموت فقال ﷺ : [لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به ، فإن كان لابد متمنيًا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي] (١) .

كيف يتفق هذا مع قوله تعالى مخبرًا عن اليهود : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ومع قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٣) ومع قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (٤) .

أما قوله تعالى مخبرًا عن اليهود آمرًا إياهم بتمني الموت فهذا كان على سبيل التحدي أو على سبيل الدعاء على أنفسهم بالموت ، يقول ابن كثير :" يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوا يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ فسلوا الموت قال ابن عباس :" لو تمنى يهود الموت لماتوا ولو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه " (٥) .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر ، باب كراهة تمني الموت ، لضرر نزل به حديث (٢٦٨٠).

(٢) سورة البقرة الآية (٩٤) .

(٣) سورة يوسف من الآية (١٠١) .

(٤) سورة مريم من الآية (٢٣) .

(٥) تفسير القرآن العظيم جـ١ صـ١٢٧ .

ويقول الفخر الرازي :" قوله : نهي عن تمني الموت ، قلنا : هذا النهي طريقة الشرع فيجوز أن يختلف الحال فيه بحسب اختلاف الأوقات ، روي أن عليًا رضي الله عنه كان يطوف بين الصفين في غلالة فقال له ابنه الحسن رضي الله عنه ما هذا بزي المحاربين فقال يا بني لا يبالي أبوك أعلى الموت سقط أم عليه يسقط الموت ، وقال عمار رضي الله عنه بصفين : الآن ألقي الأحبة محمدًا وحزبه ، وقد ظهر عن الأنبياء في كثير من الأوقات تمنى الموت على أن هذا النهي مختص بسبب مخصوص فإنه عليه الصلاة والسلام حرم أن يتمنى الإنسان الموت عند الشدائد لأن ذلك كالجزع والخروج عن الرضا بما قسم الله ، فأين هذا من التمني الذي يدل على صحة النبوة ؟ " (١) .

وأما **قوله تعالى على لسان** يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ " طلب للوفاة على حال الإسلام ، ولأن يختم له بالخير والحسنى ، كما قال يعقوب لولده ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢) ويجوز أن يكون تمنيًا للموت على ما قيل: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آبائي أو على العموم"(٣) . فهذا كان من يوسف عليه السلام دعاء بحسن الخاتمة وليس تمنيًا للموت وعلى هذا فلا تعارض بين الآية والحديث.

أما قوله تعالى على لسان مريم عليها السلام ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ تمنت مريم الموت لسببين السبب الأول : خافت أن يُظن بها السوء ، السبب الثاني : أرادت أن لا يقع أحد في البهتان بسببها فلذلك تمنت الموت وهذا جائز لأنه يحمل على شدة ورع السيدة مريم عليها السلام يقول الشوكاني :

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٣ـص١٨٣ .

(٢) سورة البقرة من الآية (١٣٢) .

(٣) الكشاف جـ٢ـص٥٠٧ .

﴿ قالت يا ليتني متُّ قبلَ هذا ﴾ أي قبل هذا الوقت ، تمنت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء في دينها أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان ﴿ وكُنتُ نَسْيًا ﴾ النسي في كلام العرب : الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل " (١) .

* * *

(٤) فتح القدير جـ٣صـ٤١٤ .

المسألة الثالثة : كيفية موت المؤمن وموت الكافر .

يتحقق الموت بقبض الأرواح بواسطة ملك الموت أو أعوانه من الملائكة الموكلين بقبض الأرواح قال تعالى : ﴿ حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ (١) " يقول تعالى ذكره : إن ربكم يحفظكم ، برسل يعقب بينها يرسلهم إليكم لحفظكم ، ولحفظ أعمالكم إلى أن يحضركم الموت ، وينزل بكم أمر الله ، فإذا جاء ذلك أحدكم توفاه أملاكنا الموكلون بقبض الأرواح ، ورسلنا المرسلون به وهم لا يفرطون في ذلك فيضيعونه .

" فإن قال قائل : أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت ، فكيف قيل : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ والرسل جملة وهو واحد ، أو ليس قد قال : ﴿ قُل يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (٢) قيل : جائز أن يكون الله تعالى أعان ملك الموت بأعوان من عنده ، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت ، فيكون التوفي مضافًا ، وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت ، إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره كما يضاف قتل من قتل أعوان السلطان ، وجلد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان،وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه،ولا وليه بيده" (٣) .

حال المؤمن عند الاحتضار :

المؤمن عند الاحتضار تبشره الملائكة بحاله في الآخرة قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

" أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ " (٥) .

(١) سورة الأنعام من الآية (٦١) .
(٢) سورة السجدة من الآية (١١) .
(٣) جامع البيان جـ٥ صـ٢١٦ .
(٤) سورة النحل الآية (٣٢) .
(٥) محاسن التأويل جـ٦ صـ٣٨٣ .

و ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ فيه ستة أقوال : الأول "طيبين" طاهرين من الشرك . الثاني : صالحين . الثالث : زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع : طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس : " طيبين" أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم ﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة . الثاني : أن يكون تبشيرًا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان ، عن محمد بن كعب القرطبي قال : إذا استنقعت [1] نفس العبد المؤمن جاءه مَلَك الموت فقال: السلام عليك ولَي الله ، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه " [2] .

﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ " أي:لتدخل أرواحهم الجنة فإنها في نعيم برزخي إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها " [3] كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذِينَ قالوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [4] .

وللموت سكرات قال تعالى : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [5] .

(١) النقع : رفع الصوت ، ونقع الصوت واستنقع إذا ارتفع . الفائق في غريب الحديث جـ٤ صـ١٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ صـ٨٣ .

(٣) محاسن التأويل جـ٦ صـ٣٨٣ .

(٤) سورة فصلت الآية (٣١).

(٥) سورة ق الآية (١٩) .

" وفي قوله : ﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ وجهان من التأويل ، أحدهما: وجاءت سكرة الموت وهي شدته وغلبته على فهم الإنسان ، كالسكرة من النوم أو الشراب (بالحق) من أمر الآخرة ، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه. والثاني : وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت " [1] والسؤال هو هل يعاني المؤمن من سكرات الموت ؟

نعم يعاني المؤمن من سكرات الموت وهذا يكون على سبيل تكفير الخطايا أو رفع الدرجات فقد ثبت أن النبي ﷺ عانى من سكرات الموت ، روي البخاري عن عائشة رضي الله عنها : [أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة أو عُلبة فيها ماء . فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول " لا إله إلا الله إن للموت سكرات" ثم نصب يديه فجعل يقول :" في الرفيق الأعلى "] [2] حتى قبض ومالت يده .

وأخرج الترمذي عنها قالت : [ما أغبط أحدًا بهون موت . بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ] [3] .

قال القرطبي :" قال عبد الله : إن المؤمن يبقى عليه خطايا من خطاياه فيجازي بها عند الموت أي جاز فيعرق لذلك جبينه .

وقال بعض العلماء : إنما يعرق جبينه حياء من ربه لما اقترف من مخالفته ؛ لأن ما سفل منه قد مات ، وإنما بقيت قوى الحياة وحركاتها فيما علا ، والحياء في

(١) جامع البيان جـ١٣ صـ١٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت حديث (٦٥١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب الجنائز ، باب ما جاء في التشديد عند الموت حديث (٩٧٩) وقال أبو عيسى : سألت أبا زرعة عن هذا الحديث وقلت له : من عبد الرحمن بن العلاء ؟ فقال : هو العلاء بن اللجلاج وإنما عرفه من هذا الوجه . .

العينين وذلك وقت الحياء والكافر في عمى عن هـذا كله ، والموحد المعـذب في شغل عن هذا بالعذاب الذي قد حل به . وإنما العرق الذي يظهر لمن حلت بـه الرحمة ، فإنه ليس من ولي ولا صديق ولا بر إلا وهو مستحي من ربه ، مع البشرى والتحف والكرامات " [١] .

حال الكافر عند الاحتضار :

الكافر عند الاحتضار تأتيه الملائكة فتضربه وتبكته قائلةً له أخرج نفسك من العذاب والشدة قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [٢] .

" أما قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ فـاعلم أن أول الآية وهو قوله:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يفيـد التخويـف العظيم على سبيل الإجمال وقوله بعد ذلك : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ كتفصيل لذلك المجمل ، والمراد بالظالمين الذين ذكـرهم ، وغمـرات الموت جمع غمرة وهي شدة الموت ، وغمرة كل شيء كثرتـه ، وجـواب "لـو" محذوف أي لرأيت أمرًا عظيمًا ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ قال ابن عبـاس : ملائكة العذاب باسطوا أيديهم يضربونهم ويعذبونهم ، كما يقال بسط إليـه يـده بالمكروه ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ ههنا محذوف ، والتقـدير : يقولـون أخرجـوا أنفسكم .

وفي الآية سؤال : وهو أنه لا قدرة لهم على إخراج أرواحهم من أجسـادهم فما الفائدة في هذا الكلام ؟

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة صـ١٦ .

(٢) سورة الأنعام من الآية (٩٣) .

فنقول : في تفسير هذه الكلمة وجوه :

الوجه الأول : ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى غمرات الموت في الآخـرة فأدخلها جهنم فغمرات الموت عبارة عما يصيبهم هنـاك مـن أنـواع الشـدائد والتعذيبات ، والملائكة باسطوا أيديهم عليهم بالعـذاب يبكتونهم،ويقولـون لهـم أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد إن قدرتم.

الوجه الثاني : أن يكون المعنى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت) عند نزول الموت بهم في الدنيا والملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم يقولون لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات والآلام .

والوجه الثالث : أن قوله : ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ أي أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غيـر تنفيس وإمهال وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم الملازم المُلح يبسط يـده إلى من عليه الحـق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ، ويقول له : أخرج إليّ ما لي عليك السـاعة ولا أبرح من مكاني حتى أنزعه من أحداقك .

والوجه الرابع : أن هذه اللفظة كناية عن شدة حالهم وأنهم بلغـوا مـن البلاء والشدة إلى حيث تولى بنفسه إزهاق روحه .

والوجه الخامس : أن قوله : ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ ليس بأمر ، بل هـو وعيد وتقريع ، كقول القائل : امضي الآن لترى ما يحل بك . قال المفسـرون :إن نفس المؤمن تنشط في الخروج للقاء ربه ونفس الكافر تكره ذلك فيشـق عليهـا الخروج ؛ لأنها تصير إلى أشد العذاب ، كما قال رسول الله ﷺ : [من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه] [١] وذلك عند نزع الروح .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقـاءه حديث (٦٥٠٨) .

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ قال الزجاج : عذاب الهون أي العذاب الذي يقع به الهوان الشديد .

والمراد منه أنه تعالى جمع هناك بين الإيلام وبين الإهانة ، فإن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم ، فكذلك العقاب شرطه أن يكون مضرة مقرونة بالإهانة . قال بعضهم : الهون هو الهوان ، والهون هو الرفق والدعة . قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (١) وقوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، وذلك يدل على أن هذا العذاب الشديد إنما حصل بسبب مجموع الأمرين الافتراء على الله ، والتكبر على آيات الله " (٢) .

* * *

(١) سورة الفرقان من الآية (٦٣) .

(٢) مفاتيح الغيب جـ١٣ من صـ٧٠ :٧٢ بتصرف .

المسألة الرابعة : موت النبي ﷺ .

تحدث القرآن عن موت النبي ﷺ في ثلاثة مواضع ، اثنان منها ذكر فيهما موت النبي ﷺ صراحة وهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١) ،وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

والموضع الثالث فُهِم منه قرب أجل رسول الله ﷺ وهو قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

"روي أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أُحد حين صاح الشيطان: قد قتل محمد . قال عطية العوفي: فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم :إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (٤) .

" فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدًا ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فُقد الرسول بموت أو قتل . وأكرم نبيه ﷺ وصفيه باسمين مشتقين من اسمه : محمد وأحمد ، تقول العرب : رجل محمود ومحمد

(١) سورة الزمر الآية (٣٠) .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٤٤) .

(٣) سورة النصر .

(٤) أسباب النزول للواحدي صـ٨٩ .

إذا كَثُرت خصاله المحمودة . فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين ، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمدٌ ، والنبوة لا تدرأ الموت ، والأديـان لا تـزول بمـوت الأنبياء .

﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِـلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ﴿ أَفَإِن مَّاتَ ﴾ شرط ، ﴿أَوْ قُتِلَ ﴾ عطف عليه ، والجواب ﴿ انقَلَبْتُمْ ﴾ . ودخل حرف الاستفهام على حـرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحـدة وخـبرًا واحـدًا . والمعنى : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قُتل ؟ وقوله : ﴿ انقَلَبْتُمْ عَلَـى أَعْقَـابِكُمْ ﴾ تمثيل، ومعناه ما ارتددتم كفارًا بعد إيمانكم ، ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَـضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ بل يضر نفسه ويعرضها للعقاب بسبب المخالفة ، والله تعالى لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية لغناه ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي الـذين صـبروا وجاهدوا واستشهدوا. وجاء﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ بعد قوله : ﴿ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ فهو اتصال وعد بوعيد .

هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجـرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ .

قال الناس : لم يمت رسول الله ﷺ ، منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى عليّ ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حـين قدومـه مـن مـسكنه بالسُّنح[1] ، الحديث كذا في البخاري . وفي سنن ابن ماجه عن عائشة قالت : [لما قبض رسول الله ﷺ وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعوالى ، فجعلوا يقولـون : لم يمت النبي ﷺ إنما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي . فجاء أبو بكر فكـشف عن وجهه وقبل بين عينيه ،وقال:أنت أكرم على الله من أن يميتك مرتين! ، قد والله

(١) السنح : موضع بعوالي المدينة ، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج . معجـم البلـدان لياقوت الحموي جـ٥صـ٨٠ .

مات رسول الله ﷺ وعمر في ناحية المسجد يقول : والله ما مات رسـول الله ﷺ ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم. فقام أبو بكر فصـعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإن الله حيّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ . قال عمر :" فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ "] [1] .

ومات ﷺ يوم الاثنين بلا اختلاف ، في وقت دخوله المدينة في هجرته حـين اشتدّ الضحى ، ودفن يوم الثلاثاء ، وقيل ليلة الأربعاء . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ** وكنـت بنا بَـراً ولم تـك جافيًا
وكنـت رحيـمًا هاديًا ومُعلمًا ** ليَبْكِ عليك اليومَ مـن كان باكيا
لعمرك ما أبـكي النبيِّ لفقـده ** ولكن لما أخشى مـن الهَرْج آتيا
كأن على قلبي لذكـرِ محمـد ** وما خفت من بعد النبي المكاويا
أفاطم صـلى الله رب محمـد ** على جَـدَث أمسى بيثرب ثاويا
فدى لرسـول الله أمي وخالتي ** وعمي وآبـائي ونفسي وماليـا
صدقت وبلغت الرسالة صادقًا ** ومت صَليبَ العـودِ أبْلج صافيا
فلو أن رب النـاس أبقى نبينا ** سعدنا ، ولكن أمره كان ماضيا
عليك مـن الله السـلام تحيةً ** وأدخلت جنات من العَدْن راضيا
أرى حسـنا أيتَمته وتركتـه ** يُبَكيّ ويدعو جـده اليـوم ناعيًا

فإن قيل : فلِمَ أخر دفن رسول الله ﷺ ؟

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب : ذكر وفاته ودفنه حديث (١٦٢٧) .

الجواب من ثلاثة أوجه: الأول : ما ذكرناه من عدم اتفاقهم على موته. الثاني: لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونه . قال قوم في البَقيع ، وقال آخرون في المسجد ، وقال قوم: يحبسن حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال أبو بكر : سمعته يقول: [ما دفن نبي إلا حيث يموت] [1] . الثالث : أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت الحال، واستقرت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأ منهم ورضا فكشف الله به الكُرْبة من أهل الردّة ، وقام به الدّين ، والحمد لله رب العالمين . ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ فنظروا في دفنه وغسّلوه وكفّنوه . والله أعلم .

واختلف هل صُلّي عليه أم لا ؟ فمنهم من قال : لم يصلّ عليه أحدٌ ، وإنما وقف كل واحد يدعو ، لأنه كان أشرف من أن يُصَلّى عليه . وقال ابن العربيّ : وهذا كلام ضعيف لأن السنة تقام بالصلاة عليه في الجنازة ، كما تقام بالصلاة عليه في الدعاء ، فيقول : اللهم صليّ على محمد إلى يوم القيامة ، وذلك منفعة لنا . وقيل : لم يصلّ عليه لأنه لم يكن هناك إمام . وهذا ضعيف لأن الذي كان يقيم بهم الصلاة الفريضة هو الذي كان يَؤُمّ بهم في الصلاة . وقيل صلّي عليه الناس أفذاذًا لأنه كان آخر العهد به ، فأرادوا أن يأخذ كل أحدٍ بركته مخصوصًا دون أن يكون فيها تابعًا لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قال القرطبي : قد أخرج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : [فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وضُع على سريره في بيته ، ثم دخل الناسُ على رسول الله ﷺ أرسالاً يُصلّون عليه، حتى إذا فرغوا

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب فضاءل الصحابة ،باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا ، ح٣٤٦٧بنحوه ..

أدخلوا النساء، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان ، ولم يَؤُمّ الناس على رسول الله ﷺ أحدٌ] [1] .

عن أنس قال : [لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم كلّ شيء ، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا] [2] .

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه : كتاب الجنائز ، باب ذكر وفاته ودفنه حديث (١٦٢٨) .وقال البوصيرى : "هذا إسناد فيه الحسين عبد الله بن عبيد الله بن عباس الهاشمى تركه الإمام أحمد بن حنبل وعلى بن المدينى والنساءى وقال البخارى : يقال إنه كان يتهم بالزندقة ، وقواه ابن عدى وباقى رجال الإسناد ثقات . ورواهابن عدى فى الكامل من طريق بكر بن سليمان عن محمد بن إسحاق به . ورواه البيهقى من طريق ابن عدى . ورواه الحاكم من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق . ورواه البيهقى من طريق الحاكم . مصباح الزجاجة : ج ١ ص٥٤٢ ط دار الكتب الحديثة .

(٢) أخرجه الترمذي : كتاب المناقب ، باب : في فضل النبي ﷺ حديث (٣٦١٨)وقال أبو عيسى :هذا حديث غريب صحيح .

المبحث الثالث

البعث

يشتمل هذا المبحث على عدة مسائل :

المسألة الأولى : معنى البعث :

يستعمل البعث في اللغة لعدة معانٍ ، فيأتي بمعنى الإرسال ، والإيقاظ من النوم، وإحياء الموتى جاء في لسان العرب ما نصه " والبعث في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإرسال ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا من بَعْدهم مُوسَى ﴾ (١) ، معناه أرسلنا . والبعث : إثارة باركٍ أو قاعدٍ ، تقول : بعثت البَعِير فانبعث أي أثرته فثار والبعث أيضًا : الإحياء من الله للموتى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ (٢) أي أحييناكم . وبعث الموتى : نشرهم ليوم البعث . وبعث الله الخلقَ يبعثهم بعثًا :نشرهم ، من ذلك، وبعثه من نومه بعثًا ، فانبعث : أيقظه وأهبه . وتأويل البعث : إزالة ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث . ومن أسمائه عز وجل: الباعث ، هو الذي يبعث الخلق أي يحييهم بعد الموت يوم القيامة " (٣) .

المسألة الثانية : وروده في القرآن :

ذكر البعث بصيغة المصدر في أربعة مواضع من القرآن الكريم هي على النحو التالي : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي

(١) سورة يونس من الآية (٧٥) .

(٢) سورة البقرة من الآية (٥٦) .

(٣) لسان العرب جـ١ صـ٣٠٧ .

(٤) سورة الحج من الآية (٥) .

كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)، وقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٢) .

ومعنى البعث في جميع هذه المواضع إحياء الموتى قال الراغب الأصفهاني في تفسيره :" البعث إرسال المبعوث من المكان الذي فيه . لكن فرق بين تفاسيره بحسب اختلاف المعلق به ، فقيل : بعثت البعير من مبركه أي أثرته ، وبعثته في السير أي هيجته ، وبعث الله الميت أحياه ، وضرب البعث على الجند إذا أمروا بالارتحال . وكل ذلك واحد في الحقيقة ، وإنما اختلف لاختلاف صور المبعوثات"(٣) .

المسألة الثالثة : الأدلة على حدوث البعث :

القرآن الكريم مملوء بالأدلة التي تؤكد وقوع البعث وسأكتفي بذكر دليل واحدٍ ولن أتعرض كذلك لذكر الأدلة العقلية التي قال بها المتكلمون وغيرهم وذلك لأن القرآن الكريم عند ذكره للأدلة يخاطب العقل بأسلوبٍ منطقي فيذكر مقدمات تؤدي إلى نتائج حيث يذكر صورة مادية مشاهدة ثم يقيس عليها أمر البعث فلسنا إذن بحاجة إلى ذكر الأدلة العقلية وحسبنا القرآن ، أما الدليل الذي سأذكره فهو: قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة الروم من الآية (٥٦) .

(٢) سورة لقمان من الآية (٢٨) .

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ٥٢ .

(٤) سورة الأعراف الآية (٥٧) .

" ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : قدام رحمته التي هي المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه والجنوب تدره ، والدبور تفرقه . ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ أي : حملت ﴿ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ أي : من كثرة ما فيها من الماء ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ أي : السحاب .

قال الشهاب : السحاب اسم جنس جمعي ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، كتمر وتمرة . وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ، ويجمع . وأهل اللغة تسميه جمعًا ، فلذا روعي فيه الوجهان ، في وصفه وضميره ــ انتهى . أي أرسلناه مع أن طبعه الهبوط ﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي : لأجله ولمنفعته ، أو لإحيائه أو لسقيه . و(ميت) قرئ مشددًا ومخففا (١) ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ أي : الضمير . والضمير في (به) للبلد ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : المختلفة الأنواع ، مع أن ماءها واحد . والمراد ﴿ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ المعتادة في كل بلد تخرج به على الوجه الذي أجرى الله العادة بها ودبرها . والضمير في (به) للماء أو للبلد . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى : مثل ذلك الإخراج ﴿ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾

أي : نحييها بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يومًا ، فتنبت منه الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب في الأرض ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لكي تتذكروا ، من أحوال الثمرات التي أعيدت إلى حالها بعد تلفها، أحوال الآخرة، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب "

١) قراءة التشديد لأبي جعفر ووافقه حمزه والكساءى ، وقراءة التخفيف للكرزيني ووافقه الباقون . يراجع :النشر فى القراءات العشر ، ج٢ ص٢٢٤ .

المسألة الرابعة : النفخ في الصور وكيفية البعث :

أولا : النفخ في الصور :

ورد النفخ في الصور في مواضع متعددة من القرآن الكريم منها قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (١) .

" أما قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ ففيه وجوه : أحدها : أنه شيء شبيه بالقرن،وأن إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه بإذن الله تعالى، فإذا سمع الناس ذلك الصوت وهو من الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ (٢) وهذا قول الأكثرين . وثانيها : يجوز أن يكون تمثيلاً لدعاء الموتى فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة . وثالثها : أن الصور جمع الصور وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والأول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه .

أما قوله : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ فاعلم أنه إنما قال [ففزع] ولم يقل فيفزع للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى .

أما قوله : ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ فالمراد إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وملك الموت ، وقيل الشهداء ، وعن الضحاك: الحور وخزنة النار وحملة العرش ، وعن جابر موسى منهم لأنه صعق مرة ومثله قوله

(١) سورة النمل الآية (٨٧) .

(٢) سورة المدثر الآية (٨) .

تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إلا مَن شَاء اللَّهُ﴾ . وليس فيه خبر مقطوع ، والكتاب إنما يدل على الجملة .

أما قوله : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ فقرئ [أتوه] و[أتاه] ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ (١) والداخر والدخر الصاغر ، وقيل معنى الإتيان : حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمر الله وانقيادهم له " .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (٢) .

" وَاختلفوا في الصعقة ، منهم مَن قال إنها غير الموتَ بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام : ﴿ وَخَرَّ موسَى صَعِقًا ﴾(٣) مع أنه لم يمت ، فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد ، وعلى هذا التقدير . فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد ، وهو المذكور في سورة النمل في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين .

والقول الثاني : أن الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا : إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت ، وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات أولها : نفخة الفزع وهي المذكورة في سورة النمل . والثانية : نفخة الصعق . والثالثة : نفخة القيام وهما مذكورتان في هذه السورة .

وأما قوله : ﴿ إلا مَن شَاء اللَّهُ ﴾ ففيه وجوه الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : عند نفخة الصعق يموت من في السماوات ومن في الأرض إلا جبريل

---

١) حجة القراءات : ص٥٣٨ .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٨) .

(٣) سورة الأعراف من الآية (١٤٣) .

وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل ويبقى جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل .

والقول الثاني : أنهم هم الشهداء لقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١) .

القول الثالث : قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يصعق ثانيًا .

القول الرابع : أنهم الحور العين وسكان العرش والكرسي .

والقول الخامس : قال قتادة الله أعلم بأنهم من هم ، وليس في القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم .

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وفيه أبحاث :

الأول : لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى ؛ لأن لفظ (ثم) يفيد التراخي . الثاني : قوله : ﴿ أُخْرَى ﴾ تقدير الكلام ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة أخرى ، وإنما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومه .

الثالث : قوله : ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ ﴾ يعني قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الأخيرة في الحال من غير تراخٍ لأن الفاء في قوله : ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ تدل على التعقيب .

الرابع : قوله : ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ وفيه وجهان الأول : ينظرون يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم . والثاني : ينظرون ماذا يفعل بهم ، ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود في مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم " (٢) .

---

(١) سورة آل عمران من الآية (١٦٩) .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٧ صـ١٧ .

يتضح من ذلك أن العلماء اختلفوا في عدد مرات النفخ في الصور فمنهم من قال : إنه ثلاث مرات هي : نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث ومنهم من قال إنهما نفختان فجعلوا نفخة الفزع ونفخة الصعق نفخة واحدة ، والرأي الراجح هو الثاني لأن السنة نصت على أنهما نفختان ، روي البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [ما بين النفختين أربعون. قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يومًا ؟ قال : أَبَيْتُ . قال: أربعون سنة ؟ قال : أَبَيْتُ ، قال : أربعون شهرًا ؟ قال أَبَيْتُ ، وَيَبْلَى كل شيء من الإنسان ، إلا عجب ذنبه ، فيه يُرَكب الخلق] (١) .

ثانيًا : كيفية البعث :

بعد أن يموت الخلق جميعًا يرسل الله مطرًا إلى الأرض فتنبت الأجساد ثم يأمر بالأرواح فترد كل روح إلى جسدها الذي كانت تعمره ويصور القرآن ذلك أدق تصوير فيقول الله عز وجل :﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (٢) .

" يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال كعب الأحبار : يأمر الله تعالى ملكًا أن ينادي على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ،﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أي من الأجداث ﴿ إِنَّا نَحْنُ

(١) أخرجه البخاري : كتاب التفسير ، باب ونفخ في الصور ، فصعق من في السماوات ومن في الأرض .. حديث (٤٨١٤) .ومعنى أبيت :لا أدرى .

(٢) سورة ق الآيتان (٤١ : ٤٤) .

نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أى هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازي كلاً بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ وذلك أن الله عز وجل يترل مطرًا من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، فإذا نفخ خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب ، سراعًا مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢) . وقوله عز وجل: ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا " (٣) .

قال رسول الله ﷺ : [ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا (٤) . قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله . قال فيصعق ، ويصعق الناس . ثم يرسل الله ـ أو قال يترل الله ـ مطرًا كأنه الطل (٥) فتنبت منه

(١) سورة القمر الآية (٨) .

(٢) سورة الإسراء الآية (٥٢) .

(٣) مختصر ابن كثير جـ٣ صـ٣٢٧ .

(٤) (أصغى ليتاً ورفع ليتا) أصغي أمال . والليت صفحة العنق ، وهي جانبه .

(٥) الطل : الذي يترل من السماء في الصحو ، والطل أيضًا المطر ، النهاية في غريب الحديث جـ٣ صـ١٣٦ .

أجساد الناس . ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون . ثم يقال : يا أيها الناس ! هلم إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [١] .قال ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : مِنْ كَمْ ؟ فيقال : من كل ألفٍ ، تسعمائة وتسعة وتسعين . قال فذاك يوم يجعل الولدان شيبًا . وذلك يوم يُكشف عن ساق] [٢] .

* * *

(٦) سورة الصافات الآية (٢٤) .

(٧) هذا جزء من حديث طويل . أخرجه مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ... حديث (٢٩٤٠) .

المبحث الرابع

الحشر

يشتمل هذا المبحث على عدة مسائل :

المسألة الأولى : معنى الحشر :

الحشر لغة : الجمع جاء في لسان العرب ما نصه : "حشر .حَشَرَهُمْ . يَحْشُرُهُمْ . ويَحْشِرهُمْ حَشْرًا : جمعهم ، ومنه يوم المحشر . والْحَشْرُ : جمع الناس يوم القيامة . وَالْحَشْرُ : حَشْرُ يوم القيامة . وَالْحَشْرُ : المجمع الذي يحشر إليه القوم"[١] والحشر في الاصطلاح : "عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة ،وذلك لفصل القضاء . "[٢].

المسألة الثانية : وروده في القرآن الكريم :

ورد لفظ الحشر في القرآن الكريم تسعًا وثلاثين مرة ، مرتين ورد بصيغة المصدر وسبعًا وثلاثين بصيغ مختلفة فورد بصيغة الفعل بأنواعه وبصيغة اسم الفاعل وغير ذلك ، وكلها بمعنى الجمع سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة .

المسألة الثالثة : أنواع الحشر :

الحشر ثلاثة أنواع هي : ١ ــ الحشر في الدنيا .

٢ ــ الحشر إلى أرض الموقف .

٣ ــ الحشر إلى الجنة أو إلى النار .

أولاً : الحشر في الدنيا :

الحشر في الدنيا يحدث عن طريق النار التي تطرد الناس إلى أرض المحشر . قال قتادة :" الحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا ،

(١)لسان العرب : ج٢ ،ص٨٨٢

٢) عقيدة المؤمن : ص٢٧٤

وتقيل معهم حيث قالوا ، وتأكل منهم من تخلف ، قال القاضي عياض : هذا الحشر في الدنيا قبل قيام الساعة وهو آخر أشراطها " [1] .

ثانياً : الحشر إلى الجنة أو إلى النار :

سوف يأتي الحديث عنه مفصلاً في موضعه .

ثالثاً : الحشر إلى أرض الموقف :

الحشر إلى أرض الموقف هو المحور الذي يدور حوله هذا المبحث ويتلخص الحديث عنه في عدة نقاط .

أولاً : كيف يصل الناس إلى أرض المحشر .

يبدأ الحشر بعد البعث مباشرة وفي أثناء ذلك تكون الأرض خالية ليس عليها جبل ولا شجر ولا بناء .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [2] .

" قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قيل : المعنى واذكر يوم نسير الجبال ، أي نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض ، ونسيرها كما نسير السحاب، كما قال في آية أخرى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [3] . ثم تكسير فتعود إلى الأرض، كما قال:﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ [4] ومعنى ﴿ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة ، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر

(١) التذكرة صـ١٧١ .

(٢) سورة الكهف الآية (٤٧) .

(٣) سورة النمل من الآية (٨٨) .

(٤) سورة الواقعة الآيتان (٥ ،٦) .

ولا بنيان ، أي قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها ، وهدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة . وعلى هذا القول أهل التفسير .

وقيل:﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي برز ما فيها من الكنوز والأموات، كما قال:﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [1] ، وقال:﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [2] وهذا قول عطاء . ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أي وإلى الموقف ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك، يقال: غادرت كذا، أي تركته. والمغادرة الترك ، ومنه الغدر ؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمي الغدير من الماء غديراً ؛ لأن الماء ذهب وتركه ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا برّهم وفاجرهم وجنهم وإنسهم" [3] .

أما عن كيفية وصول الناس إلى أرض المحشر فيوضحها حديث النبي ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفًا مشاة وصنفًا ركبانًا ، وصنفًا على وجوههم " قيل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك] [4] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه [أن رجلاً قال : يا رسول الله : الذين يحشرون على وجوههم أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله ﷺ " أليس

(١) سورة الانشقاق الآية (٤) .

(٢) سورة الزلزلة الآية (٢) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ صـ٣٤٤ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب تفسير القرآن ، باب من سورة بني إسرائيل حديث (٣١٤٢) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . والحدب : هو كل ما ارتفع من الأرض .لسان العرب : ج٢ ص٧٩٥

الذي أمشاه على الرجلين قادرًا أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " قال قتادة حين بلغه : بلى وعزة ربنا] [١] .

ثانياً : أحوال الناس في الحشر :

الناس في الحشر أحوالهم مختلفة ، فالمؤمنون مستبشرون فرحون بيض الوجوه، أما المجرمون فسود الوجوه مبهوتون زرق العيون يمشون علي وجوههم.

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [٢] .

" ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أي ينفخ إسرافيل في الصور ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي المشركين ﴿ زُرْقًا ﴾ حال من المجرمين ، والزرق خلاف الكَحَل . والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمه أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم. وقال الكلبي والفراء: "زرقًا" أي عميًا.

وقال الأزهري : عطاشًا قد أزرقت أعينهم من شدة العطش وقاله الزجاج قال : لأن سواد العين يتغير ويزرق من العطش . وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة يقال : ابيضت عيني لطول انتظاري لكذا . وقول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف . قيل لابن عباس في قوله:﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [٣] فقال : إن ليوم القيامة حالات فحالة يكونون

---

(١) أخرجه مسلم : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : يحشر الكافر على وجهه حديث (٢٨٠٦) .

(٢) سورة طه الآيتان (١٠٢ :١٠٤) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٩٧) .

فيها زرقا ، وحالة عميًا . ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أصل الخفت في اللغة السكون،ثم قيل لمن خفض صوته خفته.والمعنى يتسارون قاله مجاهد أي يقول بعضهم لبعض في الموقف سرًا : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم يعني في الدنيا ، وقيل : في القبور ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴾ يريد عشر ليال . وقيل : أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة يرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار،في قول ابن عباس — فيستقصرون تلك المدة. أو مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة ويخيل إلى أمثلهم أي أعدلهم قولاً وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يومًا واحدًا يعني لبثهم في الدنيا عن قتادة . فالتقدير : إلا مثل يوم " [١] .

والكل يومئذ مؤمنون وغير مؤمنون ، حفاة عراة غرلاً فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : [قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال :" أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة "غرلاً " [٢] ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين ألا وإن أول الناس يكتسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وإنه يؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٣] قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم "] [٤] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١١ صـ٢٠٥ .

(٢) الغُرل : جمع الأغرل ، وهو الأقلف . والغُرلة : القُلفة . النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ٣صـ٣٦٢ .

(٣) سورة المائدة الآيتان (١١٧، ١١٨) .

(٤) أخرجه مسلم : كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة حديث (٢٨٦٠) .

ثالثًا : أرض المحشر :

بعد أن يخرج الناس من قبورهم والأرض يومئذ خالية ليس عليها جبل ولا شجر ولا بناء وحال الناس يومئذ حفاةٌ عراة وبعضهم يكون راكبًا وبعضهم ماشيًا على رجليه وبعضهم ماشيًا على وجهه ومع كل واحد ملكان هما السائق والشهيد الناس يسيرون إلى أين ؟ يسيرون إلى الجسر وهو الصراط ويكونون في ظلمة ثم تبدل الأرض فيخلق الله أرضًا جديدة يحشر الناس عليها وعليها يحاسبون قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لله الوَاحد القَهَّار ﴾ [١].

" قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي اذكر يومَ تبدل الأرض ، فيكون متعلقًا بما قبله . وقيل صفة لقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ . واختلف في كيفية تبديل الأرض ، فقال كثير من الناس : إن تبدل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومدّ أرضها . قال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرضُ مدّ الأديم " [٢] وزيد في سعتها كذا وكذا . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها ، فمّرة كالمهل ومرة كالدّهان حكاه ابن الأنباري والصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي ﷺ " [٣] روي مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : [سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذٍ؟ يا رسول الله ! فقال :" على الصراط "][٤] .

(١) سورة إبراهيم الآية (٤٨) .

(٢) الآدمة بالمد : جمع أديم ، مثل رغيف وأرغفة ، وهو الجلد المدبوغ . النهاية في غريب الحديث جـ١صـ٣٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٩صـ٣١١ .

(٤) أخرجه مسلم : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة حديث (٢٧٩١) .

قال ابن مسعود : إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة .

روي مسلم بسنده عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ [يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء ، كقرصة النقي [١] ، ليس فيها عَلَمَ لأحد][٢] .

من ذلك يتضح لنا أن أرض المحشر أرض بيضاء تميل إلى الحمرة لم يعص الله عليها قط .

(١) العفراء : بالعين المهملة والمد بيضاء إلى حمرة ، النقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء هو الدقيق الحوري وهو الدرمك وهو الأرض الجيدة ، قال القاضي : كأن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى الحمرة " يراجع صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ صـ١٣٤ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب صفات المنافقين وأحوالهم ، باب في البعث والنشور ، وصفة الأرض يوم القيامة حديث (٢٧٩٠) .

المبحث الخامس

فنـــاء الكون

يشتمل هذا المبحث على عدة مسائل :

المسألة الأولى : فناء السماء والجبال :

فناء السماء يعني : السماء وما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر وغير ذلك ، وقد جمعت بين السماء والجبال في مسألة واحدة لأن القرآن ربط بينهما في أكثر من آية ، وقد مر فناء السماء بثلاث مراحل ، المرحلة الأول : مرحلة الحركة والاضطراب ، والمرحلة الثانية : التشقق لنزول الملائكة ، والمرحلة الثالثة : مرحلة الانفجار والفناء التام .

المرحلة الأولى : الحركة والاضطراب .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ (١) .

" ما الناصب ليوم ؟ نقول المشهور أن ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع أي يقع العذاب ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ والذي أظنه أنه هو الفعل المدلول عليه بقوله : ﴿ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ (٢) وإنما قلت ذلك لأن العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم ، لكن العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحشر ، وأما مور السماء : خروجها عن مكانها تتردد وتموج ، وقوله :﴿ مَوْرًا ﴾ يفيد فائدة جليلة وهى أن قوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكيفية مور السماء ، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فإنه يرى الجبل الساكن متحركًا ، فكان لقائل أن يقول السماء تمور في رأي العين بسبب سير

(١) سورة الطور الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) سورة الطور الآية (٨) .

الجبال كما يرى القمر سائرًا راكب السفينة ، والسماء إذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا في السماء ولا في الأرض .

ما السبب في مورها وسيرها ؟ قلنا قدرة الله تعالى ، وأما الحكمة فالإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها ، فإن لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى " (١) .

المرحلة الثانية : التشقق لنزول الملائكة :

قال تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ (٢) .

" ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ أي تشققت بأمر الله ، لنزول الملائكة ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ (٣) ، وقيل : تفطرت لهيبة الله تعالى والفَطْرُ : الشق، يقال: فطرته فانفطر ، ومنه فطر ناب البعير : طلع، فهو بعير فاطر ، وتفطرُ الشيء: شقق ، وسيفُ فُطار أي فيهُ شقوق، ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أي تساقطت ، نثرتْ الشيء أنثره نثرًا ، فانتثر ، والاسم النِّثار . والنُّثار بالضم : ما تناثر من الشيء ، ودُر مُنتثر ، شدد للكثرة " (٤) .

وفي هذه المرحلة تتساقط النجوم والشمس والقمر ويفنى الكل قال تعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٥) .

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٨ صـ٢٢٣ .

(٢) سورة الانفطار الآيتان (١ ، ٢) .

(٣) سورة الفرقان الآية (٢٥) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ١٩ صـ١٨٣ .

(٥) سورة التكوير الآيات (١: ٣) .

" قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال ابن عباس : تكويرها : إدخالها في العرش . والحسن: ذهاب ضوئها ، وقاله قتادة ومجاهد : وروي عن ابن عباس أيضًا . سعيد بن جُبير : عُوِّرَتْ . أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحي . وقال الربيع بن خيثم : "كورت" رمِيَ بها ، ومنه : كورته فتكور ، أي سقط . قلت : وأصل التكوير : الجمع ، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لائها وجمعها فهي تكور ويمحي ضوءها،ثم يرمي بها في البحر. والله أعلم. ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أي تهافتت وتناثرت . ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها . وسميت النجوم نجومًا لظهورها في السماء بضوئها . وعن ابن عباس أيضًا : انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها .والمعنى متقارب ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ يعني قُلعت من الأرض ، وسيرت في الهواء وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (١) . وقيل سيرها تحولها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبًا مهيلاً ،أي رملاً سائلاً ، وتكون كالعهن ، وتكون هباء منثورًا ، وتكون سرابًا ، مثل السراب الذي ليس بشيء . وعادت الأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا " (٢).

المرحلة الثالثة : مرحلة الانفجار والفناء التام :

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (٣) .

" ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء ﴾ أي:انفطرت فاختل نظامها العلوي﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي:كلون الورد الأحمر﴿ كَالدِّهَانِ﴾ أي: كالدهن الذي هو

(١) سورة الكهف من الآية (٤٧) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٩ صـ١٧٠ .

(٣) سورة الرحمن الآية (٣٧) .

الزيت،كما قال:﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ﴾(١) وهو دردي الزيت، يعني في لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال" (٢) .

المسألة الثانية : جفاف البحار وذهاب مائها :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٣) .

" ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي ملئت من الماء والعرب تقول : سَجَرت الحوض أسجره سَجْرا : إذا ملأته ، وهو مسجور ، والمسجور والساجر في اللغة : الملآن . وروي الربيع بن خيثم : سُجرت : فاضت ومُلئت . وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك ، قال ابن زمنين : سُجِّرت : حقيقته مُلئت ، فيفيض بعضها إلى بعض ، فتصير شيئًا واحدًا . وهو معنى قول الحسن . وقيل : أرسل عذبها على مالحها ، ومالحها على عذبها ، حتى امتلأت . عن الضحاك ومجاهد : أي فجرت فصارت بحرًا واحدًا . القشيري : وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى : ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ﴾ (٤) فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار ، فعمت الأرض كلها ، وصارت البحار بحرًا واحدًا . وقيل : صارت بحرًا واحدًا من الحميم لأهل النار . وعن الحسن أيضًا وقتادة وابن حيان : تيبس فلا يبقى من مائها قطرة . القشيري : وهو من سَجَرْت التنور وأسْجُره سَجْرا : إذا أحميته ، وإذا سُلط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة ، وتُسَيَّر الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطًا واحدًا ، بأن يُملأ مكان البحار بتراب الجبال . وقال النحاس: وقد تكون الأقوال متفقة ، يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض، بعضها إلى

(١) سورة المعارج الآية (٨) .

(٢) محاسن التأويل جـ٨ صـ٥٦٨ .

(٣) سورة التكوير الآية (٦) .

(٤) سورة الرحمن الآية (٢٠) .

بعض، فتقلب نارًا . قلت : ثم تُسيَّر الجبال حينئذ ، كما ذكر القشيري ، والله أعلم" (١) .

المسألة الثالثة : فناء الأرض :

قال تعالى : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا *وبُسَّتِ الجبالُ بسًّا ﴾ (٢) .

" ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا ﴾ (٣) أي إذا حركت حركة شديدة ، يقال : رجه يرجه رجا إذا حركه ، والرجة : الاضطراب وارتج البحر : اضطرب ، قال المفسرون : ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها ، قال قتادة ومقاتل ومجاهد معنى رجت زلزلت،والظرف متعلق بقوله: ﴿ خافضةٌ رافعةٌ ﴾ أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال ؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض وينخفض ما هو مرتفع ، وقيل : إنه بدل من الظرف الأول ، ذكره الزجاج ، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رج الأرض وبس الجبال﴿ وبُسَّتِ الجبالُ بسًّا ﴾ البس : الفت ، يقال : بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتًا ، ويقال : بس السويق إذا لته بالسمن أو بالزيت، قال مجاهد ومقاتل : المعنى أن الجبال فتتت فتاً ، وقال السدى : كسرت كسرًا ، وقال الحسن: قلعت من أصلها ، وقال مجاهد أيضًا : بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت ، والمعنى أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت " (٤) .

مما تقدم يتبين أن القرآن الكريم أكد أن الكون سيفنى، وقد توصل علماء الفلك إلى أدلة علمية تؤكد فناء الكون من تلك الأدلة :

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١٩ صـ١٧٢ .

(٢) سورة الواقعة الآيتان (٤ ، ٥) .

(٣) سورة الواقعة الآية (٣) .

(٤) فتح القدير جـ٥صـ١٧٦ .

١ ــ كان الكون يتوسع بسرعة بعد الخلق ثم أخذ هذا التوسع في التباطؤ .

٢ ــ مع تباطؤ سرعة توسع الكون تتفوق قوى الجاذبية على قوة الدفع فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس على ذاته ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) .

"يقول الدكتور/ زغلول النجار مؤكدًا هذه الحقيقة :" الاحتمال الثالث : ويتوقع فيه العلماء تباطؤ سرعة الكون مع الزمن وهي القوة الناتجة عن عملية الانفجار العظيم ، فكما أن الحرارة التي نتجت عن تلك العملية والتي تقدر حسابيًا ببلايين البلايين من الدرجات المطلقة لحظة الانفجار قد انخفضت اليوم إلى أقل قليلاً من الثلاث درجات مطلقة ، فلابد أن القوة الدافعة إلى الخارج ، والمؤدية إلى توسع الكون قد تناقصت بنفس المعدل ، خاصة وأن الحسابات الرياضية تشير إلى أن معدلات التمدد الكوني عقب عملية الانفجار العظيم مباشرة كانت أعلى بكثير من معدلاتها الحالية (الكون المتضخم بسرعات فائقة) . ومع تباطؤ سرعة توسع الكون تتفوق قوى الجاذبية على قوة الدفع بالمجرات للتباعد عن بعضها بعضًا ، فتأخذ المجرات في الاندفاع إلى مركز الكون بسرعات متزايدة ، لامّة ما بينها من مختلف صور المادة والطاقة ، فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس على ذاته ، ويطوي كلا من المكان والزمان حتى تتلاشى كل الأبعاد أو تكاد ، وتتجمع كل صور المادة والطاقة المنتشرة في أرجاء الكون حتى تتكدس في نقطة متناهية في الضآلة ، تكاد تصل إلى الصفر أو العدم ، ومتناهية في الكثافة والطاقة إلى الحد الذي تتوقف عنده كل قوانين الفيزياء المعروفة ، أي يعود الكون إلى حالته الأولى (مرحلة الرتق) ويسمى هذا النموذج باسم نموذج الكون المنغلق وتسمى عملية تجمع الكون باسم

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٤) .

"نظرية الانسحاق الشديد" وهي معاكسة لعملية الانفجار الكبير . ومن الأمور المعجزة حقًا أن يشير القرآن الكريم الذي أنزل قبل ألف وأربعمائة من السنين إلى أهم نظريتين في خلق الكون وإفنائه وهما نظريتا "الانفجار الكبير" و"الانسحاق الشديد" ، ونحن نرتقي بهاتين النظريتين إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود إشارة إليهما في كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومن المعجز أيضًا أن ترد الآيتان المشيرتان إلى كل من هاتين النظريتين في سورة واحدة من سور القرآن الكريم وهي سورة الأنبياء وفيهما يقول الحق عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

ويقول عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

ومن المعجز حقًا تلك الإشارة القرآنية المبهرة بإعادة خلق أرض غير الأرض الحالية ، وسماوات غير السماوات الحالية ، وهو غيب لا يمكن للإنسان أن يصل إليه أبدًا بغير هداية ربانية ، وهي الهداية التي تحسم الجدل المحير في أمر من أمور الغيب المطلق ، حار فيه علماء العصر ، فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه على خاتم أنبيائه ورسوله ﷺ " (٢) .

ها هو العلم يؤكد ما أشار إليه القرآن منذ أربعة عشر قرنًا ولكن ماذا بعد فناء الكون ؟

بعد فناء الكون تبدل الأرض والسماوات ويخلق الله أرضًا جديدة بيضاء عفراء لم يعصى الله عليها قط كل ذلك والناس على الصراط في ظلمة ثم ينتقل الناس إلى تلك الأرض الجديدة وينتظرون مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٣٠) .

(٢) السماء في القرآن الكريم : للدكتور زغلول النجار صـ ١٩١ :١٩٤ بتصرف .

المبحث السادس
الشفاعة العظمى

يشتمل هذا المبحث على مسألتين :

المسألة الأولى : معنى الشفاعة وأنواعها :

أولاً : معنى الشفاعة :

الشفاعة لغة: "كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره .وشفع إليه : في معنى طلب إليه. والشافع: الطالب لغيره، يتشفع به إلى المطلوب . يقال : تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه ، واسم الطالب شفيع " (١) .

والشفاعة اصطلاحًا هي : " أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذي مُلك أو سلطان ليقضي له حاجته في إعطائه ما هو في حاجة إليه، أو في التجاوز عنه في ذنب قارفه ، أو جريمة ارتكبها " (٢) .

ثانيًا : أنواع الشفاعة :

"الشفاعة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين : شفاعة منفية تمامًا لا حقيقة لها ، ولا واقع ولا وجود ، وشفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة ووجود .

وللشفاعة المنفية صور منها :

١ـ شفاعة الآلهة التي عُبدت من دون الله أو معه فهذه شفاعة لا وجود لها البتة ، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ملكًا ، أو نبيًا ، أو صالحًا، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين أو الحيوانات والجمادات ، وذلك لقول الله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ (٣) .

---

(١) لسان العرب جـ٤ صـ٢٢٨٩ .

(٢) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري صـ١٢٠ .

(٣) سورة الزمر الآيتان (٤٣، ٤٤) .

٢ـ الشفاعة بدون إذن الله تعالى للشافع ، أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقوله تعالى : ﴿ مَن ذا الذي يَشْفعُ عنْدَهُ إلا بإذنه ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ ولا يَشْفعُونَ إلا لمَن ارْتضى ﴾ (٢) .

والشَفاعَة المثبتة قسمان :

القسم الأول : شفاعات النبي ﷺ .

والقسم الثاني : شفاعات غيره من الأنبياء ، والأولياء ، والصالحين من عباد الله تعالى ، فأما شفاعاته ﷺ فهي كثيرة منها : الشفاعة العظمى ، وهي الشفاعة في فصل القضاء ، ومن شفاعاته ﷺ : شفاعاته في أناس من أمته فيدخلون الجنة بغير حساب ، ومنها : شفاعته ﷺ في أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم فلا يدخلون النار ، ومنها : شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته ﷺ " (٣) .

وسوف أتحدث بالتفصيل عن الشفاعة العظمى لأنها المحور الذي يدور عليه هذا المبحث .

المسألة الثانية : الشفاعة العظمى :

الشفاعة العظمى هي : الشفاعة التي يقوم بها النبي محمد ﷺ لإراحة الناس من هول الموقف يوم القيامة وهي المعبر عنها بالمقام المحمود قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ به نَافِلةً لكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٤) .

(١) سورة البقرة من الآية (٢٥٥) .

(٢) سورة الأنبياء من الآية (٢٨) .

(٣) عقيدة المؤمن صـ١٢٤ :١٢٧ بتصرف .

(٤) سورة الإسراء الآية (٧٩) .

" ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ به نَافلَةً لَّكَ ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد عن رسول الله ﷺ : [أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : " صلاة الليل "] (١) .

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم ، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَافلَةً لَّكَ ﴾ ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة ، رواه العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير. وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عن صلواته النوافل الذنوب التي عليه .

وقوله تعالى : ﴿ عَسَى أن يبْعثك رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقامًا محمودًا ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى " (٢) . " قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل ، ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم " (٣) .

روي مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [أتى النبي ﷺ يومًا بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه "فنهش منها نهشة" فقال : " أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي " وينفذهم " البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ألا

(١) أخرجه مسلم : كتاب الصيام ، باب فضل صوم المحرم حديث (١١٦٣) .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣١٦ .

(٣) جامع البيان جـ٩صـ١٤٣ .

ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض : أئتوا آدم فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبونا أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبدًا شكورًا ، اشفع لنا إلى ربنا ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر "كذباته" ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالته وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمت الناس في المهد وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ،ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبًا . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم وما تأخر

، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد غيري من قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي ، فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين "المصرعين" من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصري "] (1) .

" قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : محبته ﷺ للذراع لنضجها وسرعة استمرائها مع زيادة لذتها وحلاوة مذاقها وبعدها عن مواضع الأذى . قوله " فنهس منها نهسة " هو بالسين المهملة قال القاضي عياض : أكثر الرواة رووه بالمهملة ووقع لابن ماهان بالمعجمة وكلاهما صحيح بمعنى أخذ بأطراف أسنانه .

قوله ﷺ " أنا سيد الناس يوم القيامة " إنما قال هذا ﷺ تحدثًا بنعمة الله تعالى وقد أمره الله تعالى بهذا ونصيحة لنا بتعريفنا حقه ﷺ . قوله ﷺ " يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر " أما الصعيد فهو الأرض الواسعة المستوية وأما ينفذهم البصر فهو بفتح الياء وبالذال المعجمة . معناه ينفذهم بصر الرحمن تبارك وتعالى حتى يأتي عليهم كلهم ، وقال غير أبي عبيد أراد تخرقهم أبصار الناظرين لاستواء الصعيد والله تعالى قد أحاط بالناس أولاً وآخرًا هذا كلام الهروي ، وقال صاحب المطالع معناه أنه يحيط بهم الناظر لا يخفي عليه منهم شيء لاستواء الأرض أي ليس فيها ما يستتر به أحد عن الناظرين قال: وهذا أولى من قول أبي عبيد يأتي عليهم بصر الرحمن سبحانه وتعالى

(1) أخرجه مسلم : كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث (١٩٤) .

لأن رؤية الله تعالى تحيط بجميعهم في كل حال في الصعيد المستوى وغيره . والمراد بغضب الله تعالى ما يظهر من انتقامه ممن عصاه وما يرونه من أليم عذابه وما يشاهده أهل المجمع من الأهوال التي لم تكن ولا يكون مثلها . وقوله :" أن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى " المصرعان بكسر الميم جانبًا الباب وهجر بفتح الهاء والجيم وهي مدينة عظيمة هي قاعدة بلاد البحرين . وأما بصرى فبضم الباء وهي مدينة معروفة بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل وهي مدينة حوران وبينها وبين مكة شهر " (١).

" هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هي ليعجل حسابهم ويراحوا من هول الموقف وهي الخاصة به ﷺ وقوله : " أقول يا رب أمتي أمتي " اهتمام بأمر أمته وإظهار محبته فيهم وشفقته عليهم ، وقوله : " فيقول يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه" يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف ، فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته ، فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم " (٢) .

* * *

(١) شرح النووى على صحيح مسلم جـ٣ صـ٦٥ :٦٩ بتصرف .

(٢) التذكرة صـ٢١٤ .

المبحث السابع

الحساب والميزان

يشتمل هذا المبحث على مسألتين :

المسألة الأولى : الحساب :

" إن الحساب يدور على محتويات الكتب التي يُعطاها كل فرد من أفراد الناس في ساحة فصل القضاء ، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف ، وسواء من كان يقرأ منهم ومن لم يكن يقرأ ، ويختلف إعطاؤهم تلك الكتب، وتلقيهم لها إذ منهم من يُعطي كتابه بيمينه ومن أمامه ، ومنهم من يُعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره، وبمجرد إلقاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه بمصيره،ويعلن على الفور عن فوزه ، وفرحه ، وسروره أو عن خيبته ، وحزنه ، وخسرانه " (١) . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا *إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ *بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ (٢) .

" المعنى فأما من أعطى كتاب أعماله بيمينه ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾وسوف من الله واجب وهو كقول القائل : اتبعني فسوف تجد خيرًا ، فإنه لا يريد به الشك ، وإنما يريد ترقيق الكلام . والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله ، ويعرف أن الطاعة منها هذه ، والمعصية هذه، ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له : لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه . فإنه

(١) عقيدة المؤمن صـ٢٧٨ .

(٢) سورة الإنشقاق الآيات (٧ :١٥) .

متى طولب بذلك لم يجد عذرًا ولا حجة فيفتضح ، ثم إنه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسرورًا فائزًا بالثواب آمنًا من العذاب ، والمراد من أهله أهل الجنة من الحور العين أو من زوجاته وذرياته إذا كانوا مؤمنين فدلت هذه الآية على أنه سبحانه أعد له ولأهله في الجنة ما يليق به من الثواب ، وعن عائشة قالت : ["قال رسول الله ﷺ : من نوقش الحساب فقد هلك" فقلت يا رسول الله إن الله يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال : " ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب عذب "] [١] .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ فللمفسرين فيه وجوه :

أحدها: قال الكلبي: السبب فيه لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ويده اليسرى خلف ظهره ، **وثانيها** : قال مجاهد : تخلع يده اليسرى فتجعل من وراء ظهره ، **وثالثها** : قال قوم : يتحول وجهه في قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك ، **ورابعها**: أنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين يمنع من ذلك وأوتي من وراء ظهره بشماله فإن قيل أليس أنه قال في سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [٢] .ولم يذكر الظهر. والجواب: من وجهين أحدهما: يحتمل أن يؤتى بشماله وراء ظهره على ما حكيناه عن الكلبي ، وثانيها : أن يكون بعضهم يُعطى بشماله ، وبعضهم من وراء ظهره . أما قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ فاعلم أن الثبور هو الهلاك ، والمعنى أنه لما أوتي كتابه من غير يمينه علم أنه من أهل النار فيقول: واثبوراه" [٣] .

---

(١) أخرجه البخاري : كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب حديث (٦٥٣٧) ، ومسلم في صحيحه : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب إثبات الحساب حديث (٢٨٧٦) .

(٢) سورة الحاقة الآية (٢٥) .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣١ صـ١٠٥ ،١٠٦ بتصرف .

﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾أي يدخلها ويقاسي حر نارها وشدتها .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي : كان بين أهله في الدنيا مسرورًا باتباع هواه وركوب شهوته بطرا أشرا لعدم خطور الآخرة بباله والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا في أهله مسرورًا ، والمعنى أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة ،﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ بلى إيجاب للمنفى "بلن" أى بلى ليحورن وليبعثن ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ أي كان به وبأعماله عالمًا لما يخفى عليه منها خافية ، قال الزجاج : كان به بصيرًا قبل أن يخلقه ، عالمًا بأن مرجعه إليه " [١] .

أما قول النبي ﷺ : [من نوقش الحساب عذب] فمعناه :" نوقش استقصى عليه قال القاضي : وقوله عذب له معنيان أحدهما : أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ .والثانى : أنه مفضى إلى العذاب بالنار ويزيده قوله فى الرواية الأخرى هلك مكان عذب هذا كلام القاضي وهذا الثاني هو الصحيح ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء "[٢].

ونلاحظ هنا أن الآيات التي نصت على أخذ الكتاب صنفت الناس إلى فريقين : مؤمنين وكافرين . فأما المؤمنون فيأخذون كتبهم بأيمانهم وأما الكافرون فيأخذون كتبهم بشمالهم . والسؤال هنا ما حال عصاة المؤمنين ؟ وكيف يأخذون كتابهم ؟ حاولت البحث عن إجابة لهذا السؤال فلم أجد أحدًا من المفسرين الذين رجعت إلى كتبهم أشار إلى هذا التساؤل غير أني بفضل الله استطعت أن أستنبط

---

(١) فتح القدير جـ٥ صـ٤٨٢ ،٤٨٣ بتصرف .

٢) شرح النووى على صحيح مسلم جـ١٧ صـ٢٠٨ .

الجواب من حديث النبي ﷺ [من نوقش الحساب عذب] والجواب هو : أن جميع المؤمنين يأخذون كتبهم بأيمانهم في وقت العرض ثم بعضهم يناقش الحساب وهم عصاة المؤمنين وبعضهم لا يناقش الحساب وهم المؤمنون المطبقون لكتاب الله وسنة نبيه فيدخلهم الله الجنة برحمته ، وأما عصاة المؤمنين فيعذبون بقدر ذنوبهم ثم يدخلهم الله الجنة بالشفاعة وبفضله ورحمته أيضًا .

وهناك احتمال آخر هو : أن عصاة المؤمنين لا يأخذون كتبهم أصلاً ولكن يعرض عليهم ما فيها ويناقشهم الله عز وجل في أعمالهم فيحاسبهم بقدر ذنوبهم وذلك لأن الآيات دلت على أن أخذ الكتاب دليل على النجاة أو الهلاك والله أعلم بما سيكون .

المسألة الثانية : الميزان :

" قال العلماء : وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسابها " (١) .

ثم توضع الموازين العادلة ذات الدقة المتناهية، وتحصر الأعمال فلا يترك منها عمل وإن قل ودق ، فتوضع في موازين العدل ، وتوزن ، وبحسب نتيجة الوزن تكون السعادة ، أو يكون الشقاء . قال تعالى في بيان هذه الحقيقة: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢) . " ﴿ الْمَوَازِينَ ﴾ جمع ميزان . فقيل : إنه يدلُّ بظاهره على أن لكل مكلَّف ميزانًا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ،

(١) التذكرة صـ ٢٧٠ .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .

يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ، ويمكن أن يكون ميزانًا واحدًا عبر عنه بلفظ الجمع . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مَثَل وليس ثم ميزان وإنما هو العدل. والذي وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم .

القول الأول : ﴿الْقِسْطَ﴾ العدل أي ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا و﴿الْقِسْطَ﴾ صفة الموازين ووحد لأنه مصدر يقال : ميزان قسط ، وميزانات قسط ، وموازين قسط .﴿ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى في يوم القيامة . ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء . ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر﴿مِثْقَالُ حَبَّةٍ﴾ بالرفع هنا وفي " لقمان" على معنى إن وقع أو حضر فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر .

الباقون (مثقال) بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مثقال (١). ومثقال الشيء ميزانه من مثله . ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ مقصورة الألف قراءة الجمهور أي أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها . يجاء بها أي بالحبة ولو قال به أي بالمثقال لجاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئًا غير الحبة فلهذا قال : (أتينا بها) . وقرأ مجاهد وعكرمة (آتينا) بالمد على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتي مؤاتاة . ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ أي مجازين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : (حاسبين) أي لا أحد أسرع حسابًا منا . والحساب العد " (٢).

وقال تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (٣).

(١) حجة القراءات :ص٤٦٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ج١١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ بتصرف يسير .

(٣) سورة الأعراف الآيتان (٨ ، ٩)

" ﴿ الْوَزْنُ ﴾: مصدر من قول القائل : وزنت كذا وكذا ، أزنه وزنًا وزنة ، مثل : وعدته أعده وعدا وعدة ، وهو مرفوع بالحق ، والحق به ، ومعنى الكلام : والوزن يوم نسأل الذين أُرسل إليهم والمرسلين الحق . ويعني بالحق : العدل . وكان مجاهد يقول : الوزن فى هذا الموضع : القضاء . وقال آخرون : معنى قوله : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ وزن الأعمال . واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ فقال بعضهم : معناه : فمن كثرت حسناته . عن مجاهد : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾قال : حسناته . وقال آخرون: معنى ذلك: فمن ثقلت موازينه التي توزن بها حسناته وسيئاته ، قالوا : وذلك هو الميزان الذي يعرفه الناس، له لسان وكفتان . قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندي القول الذي ذكرناه عن عمرو بن دينار من أن ذلك : هو الميزان المعروف الذي يوزن به ، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات ، كما قال جل ثناؤه ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ موازين عمله الصالح ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ يقول : فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح ، وأدركوا الفوز "بالطليقات" والخلود والبقاء في الجنات ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله : [ما من شيء فى الميزان أثقل من حسن الخلق] (١) ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزان يوزن به الأعمال على ما وصفت ، يقول جل ثناؤه : ومن خفت موازين أعماله الصالحة ، فلم تثقل بإقراره بتوحيد الله والإيمان به وبرسوله وإتباع أمره ونهيه ، فأولئك الذين غبتوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته ﴿ بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾يقول : بما كانوا بحجج الله وأدلته يجحدون ، فلا يقرون بصحتها ، ولا يوقنون بحقيقتها . فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان ، وخبر رسوله ﷺ عنه وجهته . وقال أو بالله حاجة إلى وزن الأشياء ، وهو

(١) أخرجه أحمد : ج٦ ص٤٤٦ ،وصححه الألبانى فى صحيح الجامع : ح ٥٧٢١ .

العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده ، وفي كل حال ، أو قال وكيف توزن الأعمال ؟ ، والأعمال ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة ، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها ، وكثرتها من قلتها ، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة والكثرة والقلة ؟ قيل له في قوله : وما وجه وزن الله الأعمال وهو العالم بمقاديرها قبل كونها ، وزن ذلك نظير إثباته إياه في أم الكتاب واستنساخه ذلك في الكتاب من غير حاجة به إليه ، ومن غير خوف من نسيانه ، وهو العالم بكل ذلك في كل حال ووقت قبل كونه ، وبعد وجوده ، بل ليكون ذلك حجة على خلقه ، كما قال جل ثناؤه في تنزيله ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ *هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ (١) .. الآية، فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان حجة عليهم ولهم ، إما بالتقصير في طاعته والتضييع ، وإما بالتكميل والتتميم .

وأما وجه جواز ذلك ، فإنه كما حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي بسنده عن عبد الله بن عمر ، قال : يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان ، فيوضع في الكفة ، فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً فيها خطاياه وذنوبه ، قال : ثم يخرج له كتاب مثل الأنملة ، فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ ، قال : فتوضع في الكفة ، فترجح بخطاياه وذنوبه ، فكذلك وزن الله أعمال خلقه بأن يوضع العبد وكتب حسناته في كفة من كفتي الميزان ، وكتب سيئاته في الكفة الأخرى ، ويحدث الله تبارك وتعالى ثقلاً وخفة في الكفة التي الموزون بها أولى احتجاجًا من الله بذلك على خلقه كفعله بكثير منهم من استنطاق أيديهم وأرجلهم ، واستشهادًا بذلك عليهم " (٢) .

(١) سورة الجاثية الآيتان (٢٨ ،٢٩) .

(٢) جامع البيان جـ٥ صـ١٢٢ :١٢٥ بتصرف يسير .

قال القرطبي :" قال علماؤنا رحمهم الله : الناس في الآخرة ثلاث طبقــات . متقون لا كبائر لهم ، ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر ، والثالــث الكفار .

فأما المتقون : فإن حسناتهم توضع في الكفة النيرة وصغائرهم إن كانت لهــم الكفة الأخرى ، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا وتثقل الكفة النيرة حتى لا تبرح ، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي .

وأما المخلطون : فحسناتهم توضع في الكفة النيرة وسيئاتهم في الكفة المظلمة ، فيكون لكبائرهم ثقل ، فإن كانت الحسنات أثقل ولو "بصؤابة [١]" دخل الجنــة ، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتي هذا إن كانت الكبائر فيما بينه وبين الله ، وأمــا إن كانت عليه تبعات وكانت به حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات لكثرة ما عليه من التبعات فيحمل عليه من أوزار مــن ظلمــه ، ثم يعذب على الجميع .

وأما الكافر : فإنه يوضع كفره في الكفة المظلمة ولا يوجد له حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فتبقى فارغة لفراغها وخلوها عن الخير ، فيأمر الله بهم إلى النــار ويعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره وآثامه .

وأما المتقون : فإن صغائرهم تكفر باجتنابهم الكبائر ويــؤمر بهــم إلى الجنة ويثاب كل واحد منهم بقدر حسناته وطاعته ، فهذان الصنفان هما المــذكوران في القرآن في آيات الوزن ؛ لأن الله تعالى لم يذكر إلا من ثقلت موازينه ومن خفــت موازينه ، وقطع لمن ثقلت موازينه بالإفلاح والعيشة الراضية ولمن خفت موازينــه بالخلود في النار بعد أن وصفه بالكفر ، وبقي الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا

(١) الصؤاب والصؤابة : بيض البرغوث والقمل .لسان العرب : ج٤ ص٢٣٨٣

فبينهم النبي صلى الله عليه وسلم "[١]فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قــال رسول الله ﷺ : [إن الله يستخلص رجلاً من أمتي علــى رءوس الخلائــق يــوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئًا ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ قال : لا يارب فيقول : بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخــرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورســوله فيقــول : احــضر وزنك فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشــت الــسجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء] [٢] .

* * *

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة : ص٢٧٤

(٢) اخرجه أحمد في مسنده جـ٢ ص٢١٣ وقال الساعاتي : رواه الترمذى وابــن ماجــه والحاكم ونقله المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب ،وابن حبان فى صحيحه ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .الفتح الربانى: ج٢٤ ص١٥٢ ..

المبحث الثامن

الصراط

يشتمل هذا المبحث على عدة مسائل :

المسألة الأولى : وروده في القرآن الكريم :

لم يرد للصراط ذكر في القرآن الكريم صراحة وإنما ورد ذكره ضمنًا في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [1] .

"اعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [2]. ثم قال : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ أردفه بقوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يعني جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم أولاً كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة،قالوا : إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور : أحدها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [3] والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها . والثاني : قوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [4] ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها. وثالثها : قوله:﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [5] .

وقال الأكثرون : إنه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فلم يخص . وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الأول ، ويدل عليه

(١) سورة مريم الآيتان (٧١ ،٧٢) .

(٢) سورة مريم الآية (٦٨) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (١٠١) .

(٤) سورة الأنبياء الآية (١٠٢) .

(٥) سورة النمل الآية (٨٩) .

قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي من الواردين من اتقى ولا يجوز أن يقال : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا) إلا والكل واردون والأخبار المروية دالة على هذا القول ، ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود فقال بعضهم : الورود الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة ، واحتجوا على أن الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ [1] ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [2] وأراد به القرب . ويقال : وردت القافلة البلدة وإن لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية أن الجن والإنس يحضرون حول جهنم ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي واجبًا مفروغًا منه بحكم الوعيد ثم ننجي أي نبعد الذين اتقوا عن جهنم وهو المراد من قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ومما يؤكد هذا القول ما روي أنه ﷺ قال : [لا يدخل النار أحد شهد بدرًا أو بايع تحت الشجرة فقالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال عليه السلام فمه ؟ ثم ننجي الذين اتقوا] [3] ، ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازمًا .

القول الثاني: أن الورود هو الدخول ويدل عليه قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [4] "[5]

(١) سورة يوسف الآية (١٩) .

(٢) سورة القصص الآية (٢٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ٦ ص٣٦٢ وقال الساعاتي : سنده جيد وله شواهد تؤيده .يراجع الفتح الرباني :ج٢٢ ،ص ١٩٤ ..

(٤) سورة الأنبياء الآية (٩٨) .

(٥) مفاتيح الغيب جـ٢١ صـ٢٢٠ .

." وقال قتادة قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ هو الممر عليها . عن ابن مسعود في قوله : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ قال : قسمًا واجبًا ، وقال مجاهد : ﴿حَتْمًا﴾ قال قضاء ، وقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم إلى النار ، وسقط من سقط من الكفار ، والعصاة ، نجي الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [١] .

يفهم من قول قتادة أن الورود هو المرور عليها والمرور من فوقها يكون من خلال الصراط الذي يضرب على متنها . روي الطبري بسنده عن أبي الأحوص ، عن عبد الله " في قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم . ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم " [٢] .

المسألة الثانية : صفة الصراط وكيفية المرور عليه :

أولًا : صفة الصراط :

قال أبو سعيد الخدري رضى الله عنه: "بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف " وفي رواية " أرق من الشعرة " رواها مسلم [٣] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ١٣٣ .

(٢) جامع البيان جـ٩ صـ١١٠ .

(٣) أخرجه مسلم : كتاب الأيمان ، باب معرفة طريق الرؤية حديث (١٨٣) .

وعن سعيد بن أبي هلال قال :" بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر وعلى بعض الناس مثل الوادي الواسع . يقول القرطبي: " ذهب بعض من تكلم على أحاديث هذا الباب في وصف الصراط بأنه أدق من الشعر وأحد من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي . ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها " [١] .

وأميل إلى هذا القول وذلك لما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : [يا رسول الله أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فقال النبي ﷺ دون الصراط] ، وفي رواية [على الجسر] والسؤال هو : يكف يكون الجسر أرق من الشعر وأحد من السيف ويستوعب الناس جميعًا ؟

والجواب : هو أن ضيق الجسر وسعته يكون على حسب العمل فيتسع للمؤمنين ويضيق على الكافرين كما جاء في رواية سعيد بن أبي هلال السالفة الذكر .

ثانيًا : كيفية المرور على الصراط :

روي مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :[ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز . ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل . ودعوى الرسل يومئذ : اللهم ! سلم ، سلم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان . هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله! قال: " فإنها مثل شوك السعدان . غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله . تخطف الناس بأعمالهم . فمنهم المؤمن بقي بعمله . ومنهم المجازي حتى يُنجي] [٢] .

---

(١) التذكرة صـ٢٨٩ .

(٢) أخرجه مسلم : كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية حديث (١٨٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [ثم يضرب الجسر على جهنم . وتحل الشفاعة . ويقولون : اللهم ! سلم سلم . قيل : يا رسول الله ! وما الجسر ؟ قال :" دحض مَزلة (١) فيه خطاطيف وكلاليب وحَسَك(٢) . تكون بنجدٍ فيها شُويكة يقال لها السعدان . فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب . فناج مسلم . ومخدوش مرسل . ومكدوس في نار جهنم] (٣) .

المسألة الثالثة : القنطرة بين الجنة والنار :

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا](٤) .

---

(١) الدحض والمزلة بمعنى واحد.وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر.

(٢) الحسك : فهو شوك صلب من حديد .

(٣) أخرجه مسلم : كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية حديث (١٨٣) .

(٤) أخرجه البخاري : كتاب المظالم، باب: قصاص المظالم حديث (٢٤٤٠) .

المبحث التاسع

انصراف الناس إلى منازلهم

يشتمل هذا المبحث على مسألتين :

المسألة الأولى : الناس في الطريق :

الناس عند المرور على الصراط ثلاثة أصناف: مؤمنون ، ومنافقون ، وكافرون ، والكل حينئذ في ظلمة فأما المؤمنون فيعطيهم الله النور بقدر أعمالهم ، وأما المنافقون فقيل يعطون النور ثم يسلب منهم وأما الكفار فيكونون في ظلمة فإذا ساروا على الصراط أخذتهم الكلاليب فالقتهم في النار ثم يسير المؤمنون ويتبعهم المنافقون . فأما المؤمنون فيمضون إلى الجنة وأما المنافقون فيحبسون للعذاب .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

"قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ العامل في "يوم" ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وفي الكلام حذف ، أي " وله أجر كريم " في " يوم ترى" فيه ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم ﴾أي يمضي على الصراط في قول الحسن ، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي قدامهم . ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ قال الفراء : الباء

---

(١) سورة الحديد الآيات (١٢ :١٥) .

بمعنى في ، أي في أيمانهم . أو بمعنى عن ، أي عن أيمانهم ، وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورًا من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى .

قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ التقدير ، يقال لهم : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ ﴾ دخول جنات . ولابد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن البشرى حدث ، والجنة عين فلا تكون هي هي . ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾، أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف التقدير " بشراكم اليوم " دخول جنات ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ مقدر من الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول . قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ العامل فى "يوم" ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر والنظر الانتظار ، أي انتظرونا . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب " أنظرونا" بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار ، أي أمهلونا وأخرونا أنظرته أخرته ، واستنظرته ، أي استمهلته [1]. وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني انتظرني وأنشد لعمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا ** وأنظرنا نخبرك اليقينا

أي انتظرنا . (نقتبس من نوركم) أي نستضئ من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة ــ قال الماوردي : أظنها بعد فصل القضاء ــ ثم يعطون نورًا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطى الله المؤمنين نورًا يوم

(١)حجة القراءات :ص٦٩٩.

القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، ويعطي المنافقين أيضًا نورًا خديعة لهم دليله قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [1] . وقيل: إنما يعطون النور ، لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه ، قال ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطي المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبي : بل يستضئ المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة فاطفأ بذلك نور المنافقين فذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقوله المؤمنون خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون ، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم ، قالوا للمؤمنين : ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ﴾ . ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ ﴾، أي قالت لهم الملائكة "ارجعوا" .وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم : (ارجعوا وراءكم) إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورًا فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ وقيل : أي هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا ." بسور" أي سور والباء صلة . قاله الكسائي . والسور حاجز بين الجنة والنار. قال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار ﴿ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعني الجنة ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يعني جهنم . وقال مجاهد: إنه حجاب كما في " الأعراف " قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون ، ونغزو مثل ما تغزون ، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ ،أي يقول المؤمنون "بلى" قد كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي استعملتموها في الفتنة . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصي ، قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات واللذات رواه أبو نمير الهمداني .﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾ ، أى ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالنبي ﷺ الموت ،

(١) سورة النساء من الآية (١٤٢)

وبالمؤمنين الدوائر . وقيل : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالتوبة ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ ، أي شككتم في التوحيد والنبوة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ ، أي الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم . وقال قتادة : الأماني هنا خدع الشيطان . وقيل : الدنيا ، قاله عبد الله بن عباس . وقال أبو سنان : هو قولهم سيغفر لنا . وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرة . ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعني الموت . وقيل : نصرة نبيه ﷺ . وقال قتادة : إلقاؤهم في النار ﴿ وَغَرَّكُم ﴾ أي خدعكم ﴿ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان ، قاله عكرمة . وقيل : الدنيا ، قاله الضحاك . وقال بعض العلماء : إن للباقي بالماضي معتبرًا ، وللآخر بالأول مزدجرًا ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخُدَع ، ومن ذكر المنيّة نسي الأمنية ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل . وجاء "الغرور" على لفظ المبالغة للكثرة .

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ (١) أيها المنافقون ﴿ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيأسهم من النجاة. ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ ، أي أولى بكم ، والمولى من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن كان ملازمًا للشيء ، وقيل : أي النار تملك أمرهم بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظًا على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (٢) ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، أي ساءت مرجعًا ومصيرًا " (٣) .

(١) سورة الحديد من الآية رقم (١٥) .

(٢) سورة ق من الآية رقم (٣٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ١٧ من صـ١٨٥ :١٨٨ .

يفهم من ذلك أن المنافقين الذي ذكروا في الآية إما أن يكونوا منافقي العقيدة ، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، وإما أن يكونوا منافقي العمل — وهو عصاة المؤمنين — واعتقادي — والله أعلم — أنهم منافقوا العمل وذلك لأن منافقي العقيدة يكونون مع الكفار بل يكونون في الدرك الأسفل من النار .

المسألة الثانية: سوق الكافرين إلى النار وسوق المؤمنين إلى الجنة:

أولا : سوق الكافرين إلى النار :

أثناء هذه الدراسة ورد بخاطري سؤال هو : هل السوق إلى النار أو إلى الجنة يكون قبل المرور على الصراط أم بعده ؟

بحثت عن جواب لهذا السؤال فلم أجد أحدًا من المفسرين الذين رجعت إلى كتبهم أشار إلى هذا التساؤل وأعتقد — والله أعلم — أن هناك احتمالان أحدهما : أن السوق إما أن يكون قبل المرور على الصراط فإذا كان كذلك فلا إشكال وذلك لأن الكافر إذا مر على الصراط أخذته الكلاليب فيسقط في النار ،والاحتمال الثاني : أن يكون السوق بعد السقوط من على الصراط فإذا كان كذلك فيكون سقوط الكافر في المكان الذي فيه جهنم بالقرب من أبوابها ثم تسوقه الملائكة لتدفعه دفعًا إلى النار والله أعلم بالصواب .

قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١).

" يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقًا عنيفًا بزجر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

(١) سورة الزمر الآيتان (٧١ ، ٧٢) .

دَعًّا ﴾ (١) . أي يدفعون إليها دفعًا ، وهذا وهم عطاش للماء كما قال جل وعلا في الآية الأخرى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ (٢) وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشي على وجهه ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (٣) ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعًا لتعجل لهم العقوبة ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ؟ فيقول الكفار لهم: (بلى) أي قد جاؤنا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل كما قال عز وجل مخبرًا عنهم في الآية الأخرى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٤) أي رجعوا على

(١) سورة الطور الآية (١٣) .

(٢) سورة مريم الآيتان (٨٥ ، ٨٦) .

(٣) سورة الإسراء من الآية (٩٧) .

(٤) سورة الملك الآيات (٨: ١٠) .

أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١) أي بعدًا لهم وخسارًا . وقوله تبارك وتعالى ههنا ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ولهذا قال جل وعلا : ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيه لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل » (٢) .

قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة (زمرًا) أي جماعة بعد جماعة : المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضًا ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة

(١) سورة الملك الآية (١١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٤ صـ٦٥ .

(٣) سورة الزمر الآيات (٧٣ : ٧٥) .

الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمدًا ﷺ وعليهم أجمعين كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : [أنا أول شفيع في الجنة] [١] وفي لفظ لمسلم [وأنا أول من يقرع باب الجنة] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :

[آتي باب الجنة يوم القيامة استفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد ــ قال ــ فيقول بك أُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك] [٢] .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكرامًا وتعظيمًا وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة .

---

(١) أخرجه مسلم : كتاب الإيمان ، باب أنا أول الناس يشفع في الجنة حديث (١٩٦) .

(٢) أخرجه مسلم : كتاب الإيمان ، باب أنا أول الناس يشفع في الجنة حديث (١٩٧) .

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : [ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء] [١] .

ذكر سعة أبواب الجنة،نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها .

في صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها ولقد ذكر لنا أن ما بين مصرعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام " [٢] .

"خرج البخاري حديث القنطرة هذا في جماعة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا] [٣] .

وحكى النقاش:إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [٤] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها :

---

(١) أخرجه مسلم : كتاب الطهارة ، باب الذكر المستحب عقب الوضوء حديث (٢٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الزهد والرقائق ،ح٢٩٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري : كتاب المظالم، باب : قصاص المظالم حديث (٢٤٤٠) .

(٤) سورة الإنسان الآية (٢١) .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ وهذا يروي معناه عن علي رضي الله عنه " (١) .

وقوله تبارك وتعالى:﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادي بين المسلمين في بعض الغزوات [إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة — وفي رواية — مؤمنة — (٢)] ، وقوله : ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولاً : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم الملك الكبير يقولون عند ذلك ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ (٤)، وقالوا ـ ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (٥) ، وقولهم : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد أي

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١٥ صـ٢٢٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب تفسير القرآن ، باب من سورة التوبة حديث (٣٠٩٢)، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩٤) .

(٤) سورة الأعراف من الآية (٤٣) .

(٥) سورة فاطر الآيتان (٣٤، ٣٥) .

أرض الجنة فهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١) ، ولهذا قالوا ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا وفي الصحيحين من حديث الزهري عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ : [أدخلت الجنة فإذا فيها " جنابذ " (٢) اللؤلؤ وإذا ترابها المسك] (٣) . لما ذكر تعالى الحكمة في أهل الجنة والنار وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور وقد فصل القضية وقضي الأمر وحكم بالعدل ولهذا قال عز وجل ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الخلائق . ثم قال : ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد . قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله : ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (٤) واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ " (٥) .

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٥) .

(٢) "جنابذ" جمع جنبذة والجنبذة بالضم : ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة ، لسان العرب جـ١صـ٦٩٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الصلاة ،باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء ح٣٤٢ ومسلم فى صحيحه : كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ح١٦٣ .

(٤) سورة الأنعام من الآية (١) .

(٥) تفسير القرآن العظيم جـ٤ صـ٦٧ ،٦٩ بتصرف يسير .

الخاتمـــة

وتشتمل على أهم النتائج التي أسفر عنها البحث :

١ ـــ اليوم الآخر هو اليوم الذي يبدأ بالبعث وينتهي باستقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وهو اليوم الوحيد الذي لا ليل له .

٢ ـــ الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر هما طرفا الإيمان فالذي يؤمن بالطرفين يؤمن بالوسط لذلك جمع القرآن بينهما في اثنين وعشرين موضعًا .

٣ ـــ إن الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تبارك وتعالى .

٤ ـــ إن علامات الساعة الصغرى التي ذكرت في الصحيحين سبع وعشرون علامة .

٥ ـــ إن علامات الساعة الصغرى التي وردت في الصحيحين سبع وعشرون علامة ، ظهر منها سبع عشرة علامة هي :

(١) بعثة النبي ﷺ .

(٢) اقتتال فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة .

(٣) بعث دجالين كذابين كلهم يزعم إنه نبي .

(٤) قبض العلم .

(٥) تقارب الزمان .

(٦) ظهور الفتن .

(٧) كثرة القتل .

(٨) التطاول في البنيان .

(٩) نقص العمل .

(١٠) كثرة الشح .

(١١) قومًا يهدون بغير هدين .

(١٢) دعاة على أبواب جهنم .

(١٣) ولادة الأمة ربتها .

(١٤) سقوط الخلافة وانقسام المسلمين دول .

(١٥) كثرة الروم .

(١٦) ظهور التبرج .

(١٧) خروج نار من الحجاز تضيء الشام .

٦ـــ تعرض النبي ﷺ وهو حبيب الرحمن ـــ لشدة عند الموت إذن فلا ينبغي أن يعلل هون الموت وشدته بحال الإنسان مع ربه .

٧ ـــ حين يذكر القرآن الكريم أدلة البعث يذكرها بأسلوب منطقي يخاطب العقول ، فإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن نذكر ما يسمى بالأدلة العقلية التي قال بها علماء الكلام وقس على ذلك القضايا الأخرى التي تحدث القرآن عنها مثل قضية التوحيد وغيرها . فقد أقنع القرآن العقل وغذى القلب وأثار الوجدان ، فحسبنا في مثل هذه القضايا ما ذكره القرآن من أدلة .

٨ ـــ إن الموت ليس بعدم محض ولا بفناء صرف وذلك لأن الأجساد عندما تتحلل تبقى في أجزاء الأرض أما الأرواح فإنها تكون إما في عليين وأما في سجين ثم ينزل الله مطرًا كأنه الطل وفي رواية كمني الرجال فتنبت الأجساد المتحللة الموجودة في أجزاء الأرض ثم ترد إليها الأرواح .

٩ ـــ عندما يبعث الناس تكون الأرض خالية ليس عليها بناءاً ولا شجر ولا جبل .

١٠ ــ الناس عند ذهابهم إلى أرض المحشر ثلاثة أصناف : ركبانًا ، ومشاة على أقدامهم ، ومشاة على وجوههم .

١١ ــ المكان الذي يذهب الناس إليه قبل ذهابهم إلى أرض المحشر هو الصراط ويكونون في ظلمة حتى تبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

١٢ ــ أكد القرآن الكريم على أن الكون سيفنى وقد توصل العلم الحديث إلى ذلك من خلال نظريتين هما : " نظرية الانفجار العظيم " و"نظرية الانسحاق الشديد " .

١٣ ــ حال الناس في موقف الحشر شديد حيث الحر الشديد والعرق الغزير والحيرة الشديدة وقرب الشمس من الرؤس والزحام الشديد ، ثم يأتي من يخلصهم من هذه الأهوال ألا وهو سيدنا محمد ﷺ وذلك عن طريق الشفاعة العظمى .

١٤ ــ صنف القرآن الناس في أخذ الكتاب صنفين منهم من يأخذه باليمين وهم المؤمنون الناجون ومنهم من يأخذه بالشمال وهم الكفار الهالكون أما عصاة المؤمنين فلم يرد لهم ذكر وقد توصلت بفضل الله إلى أنه يحتمل أن لا يأخذوا كتبهم بل تعرض عليهم فقط ثم يناقشون الحساب فيعذبون بقدر ذنوبهم .

١٥ ــ الحكمة من الميزان هي : إظهار الحجة للخلق وليست علم الخالق بأعمال الخلق لأنه يعلم السر وأخفى .

١٦ ــ إن الرواية التي وردت في وصف الصراط وأنه أرق من الشعر وأحد من السيف فسرها العلماء بأنه يكون كذلك أي يضيق ويوسع بحسب العمل .

١٧ ــ النفاق نوعان نفاق عقيدة ونفاق عمل ، والمنافقون نوعان منافقو عقيدة ومنافقو عمل ، فمنافقو العمل هم الذين يسيرون خلف المؤمنين قائلين هم ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ .

١٨ ــ سوق الكافرين إلى النار إما أن يكون قبل المرور على الصراط ، فلا إشكال وإما أن يكون بعد المرور على الصراط ، فحينئذ يسقط الكافر من فوق الصراط في المكان الذي فيه جهنم بالقرب من أبوابها فتدفعه الملائكة دفعًا إلى النار .

١٩ ــ بعد مرور المؤمنين على الصراط يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار حتى يخلصون من مظالم كانت بينهم ثم تسوقهم الملائكة برفق إلى الجنة فيستقرون فيها ونعم القرار .

* * *

فهرس المراجع والمصادر

أولاً : القرآن الكريم .

ثانيا : كتب التفسير وعلوم القرآن :

١ ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ــ أبو السعود محمد ابن محمد بن مصطفى الحنفي ــ طبعة : دار الفكر .

٢ ــ أسباب النزول ــ جلال الدين السيوطي ــ طبعة : دار قتيبة .

٣ ــ الجامع لأحكام القرآن ــ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ــ مطبعة : المكتبة التوفيقية .

٤ ــ الكشاف ــ تأليف الإمام محمود بن عمر الزمخشري ــ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م ــ طبعة : دار الريان للتراث .

٥ ــ تفسير القرآن العظيم ــ تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ــ طبعة: نهضة مصر .

٦ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ــ طبعة: بيروت ــ لبنان ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م .

٧ــ فتح القدير ــ للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ــ تحقيق: سيد إبراهيم ــ طبعة: دار الحديث .

٨ ــ المفردات في غريب القرآن ــ تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ــ ط: دار المعرفة ــ بيروت .

٩ ــ محاسن التأويل ــ للإمام العلامة محمد جمال الدين القاسمي ــ تحقيق : أحمد بن علي ــ طبعة: دار الحديث .

١٠ ــ معالم التنزيل ــ للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ــ ط: بيروت الأولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م .

١١ ــ مفاتيح الغيب ــ للإمام فخر الدين محمد بن عمر ــ طبعة : المكتبة التوفيقية .

١٢ ــ مختصر تفسير ابن كثير ــ للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير ــ تحقيق دكتور : عبد الفتاح جمعان ــ تعليق: الشيخ ناصر الدين الألباني ــ طبعة : طاهر للتراث .

ثالثا : كتب الحديث وعلومه :

١ ــ سنن ابن ماجه ــ للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ــ دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه .

٢ ــ سنن الترمذي ــ لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .

٣ ــ صحيح البخاري ــ تأليف أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ــ طبعة: دار إحياء الكتب العربية .

٤ ــ صحيح مسلم ــ تأليف الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ــ طبعة: دار إحياء الكتب العربية .

٥ ــ مسلم بشرح النووي ــ طبعة الهيئة العربية لشئون المطابع الأميرية .

٦ ــ فتح الباري ــ للإمام الحافظ بن حجر العسقلاني .

٧ ــ الفائق في غريب الحديث ــ للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري ــ ط: الثانية ــ عيسى البابي الحلبي .

٨ ــ النهاية في غريب الحديث والأثر ــ للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير ــ ط: دار إحياء الكتب العربية .

٩ ــ المستدرك ــ للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري ، وفي ذيله تلخيص المستدرك ــ مطابع النصر الحديثة ــ الرياض ص ب ٥٧٦ .

١٠ ــ المسند ــ للإمام أحمد بن حنبل ــ دار صادر ــ بيروت .

١١ ــ المعجم الصغير للطبراني ــ للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني المتوفى ٣٦٠هـ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

رابعًا : كتب العقيدة :

١ ــ التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ــ للإمام القرطبي ــ طبعة : دار الحديث .

٢ ــ عقيدة المؤمن ــ أبو بكر جابر الجزائري .

خامسًا : كتب اللغة :

١ ــ لسان العرب ــ تأليف ابن منظور ــ الطبعة الثالثة ــ دار المعارف .

٢ ــ مختار الصحاح ــ للشيخ محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي ــ طبعة دار المعارف .

سادسًا : مراجع ومصادر أخرى :

١ ــ السماء في القرآن الكريم للدكتور: زغلول النجار ــ طبعة : دار المعرفة .

٢ ــ أشراط الساعة ــ تأليف يوسف الوابل .

٣ ــ معجم البلدان ــ للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ــ طبعة ــ بيروت الأولى ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م .

الفهرس